

مشيخة عقل طائفة الموحدين الدروز

٢٠١٤

بسم الله الرحمن الرحيم

الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة

ولا نوم له ما في السموات وما في الأرض من ذا الذي

يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما

خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع

كرسيه السموات والأرض ولا يؤده حفظهما

وهو العلي العظيم

فهرس المحتويات

بســـــم الله الرحمن الرحيم

توطئة

قال تَعَالَى في كتابهِ الحكيم: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾[1]، آية كريمة موجهة الى الخلق أجمعين، فقد منحهم تَعَالَى من نِعَمَهَ السابغة وآلائِهِ السنيّة ما لا يحصى. وشَاءَ سَبحَانه بِعِلمِهِ السابِق من الخلق وهي العبادة أنَّ الغاية والمقصود بها جانبان: الأول الحمد والشكر لله تَعَالَى على نعمه الجليلة بمعرفته حق المعرفة، والثاني مواصلة السعي لتحقيق سعادة الإنسان الروحيَّة في الدنيا والآخرة، وقاعدتها الطاعة للحق.

قال تَعَالَى: ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾[2]، وتبيّن هذه الآية الكريمة وحدة الخلاص الحقيقي بما يتعلق بنفس الانسان وارتباط أفعال النجاة بالإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق والصبر، وفي ما عدا ذلك فهو خسران.

---

[1] [ابراهيم ٣٤]
[2] [العصر ١-٣]

والحق هو الأمر الثابت الذي لا سبيل الى إنكاره ويشتمل على الخير كله: إيمان بالله واتّباع أوامره، واجتناب نواهيه باحلال الحلال وتجنُّب الحرام. ولن يكون العمل صالحاً الا بشرطين أن يكون مأموراً به شرعاً، وأن يبتغي بالعمل وجه الله.

إن تنفيذ أحكام الله سبحانه وتَعَالىَ هو الواجب المُلزِم، وهو الأحوط والأفضل والأسلم التزامًا بالنصوص المقدسة والعبادات، لأن غاية نظام التوحيد وأحكامه هي مصلحة الإنسان دومًا .

يُمكن مقاربة المفهوم الدّيني في حياتنا عبر خمسة عناصر رئيسية: وجوده سُبحَانه، النصوص المقدَّسة، الشعائر والعبادات، النظام الأخلاقي، المؤسسة الشرعية (الدينية)(*) .

وجوده سُبحانه منزَّه عن الخواطر والأفكار، وبأمرِه كان الوجود وفق نظام معقول، رحمةً بالخَلق. وفضلاً عن الرسالات الإلهيةِ المنذورة لهدايتهم، فقد تأمَّل الأقدمون عِلل هذا الوجود، وصنّفوا هذا التأمّل في نطاق الحكمة النظريَّة التي يتدرّج بها الإنسان إلى ما سمّوه العالم الأعلى والفلسفة الأولى، التي يجب أن تُفهم في ضوء الإيمان بالله تَعَالىَ.

(*) بحث المؤسسة يخرج عن مضمون هذا الكتاب.

تبدأ دراسة الفلسفة الأولى عند عبارة "اعرف نفسك"، وهذه القاعدة تتطلب جهوداً كبيرة ودراسة معمقة وإلا فإنها تصبح كمن يبني بيتًا على أمواج البحر بِلا أساس. فكيف يمكن أن يتطّلب علمٌ مثل الطب، سنوات طويلة من المتابعة والدرس والبحث والخبرة، في حين أن البعض يَظُنُّ أن معرفة النفس يمكن أن تحصل بجلسات قليلة يتم فيها تبادل الحديث بشكل غير مدروس.

وتعتبر الشعائر أحد أبرز وجوه الإلتزام بالمسلك الديني. من خلالها يحاول المرء أن يضع شكلاً ملموسًا يدركه بحواسه، لجوهر قد يتخطى إدراكه إمكاناته المحدودة. ومع أنَّ الشعائر والعبادات ترتكز على الشكل، تبقى مجرّد وسائل يستعملها المرء للتعبير عن صلته بالله عزَّ وجلّ.

نحن نُشير الى ثوابت النظام الأخلاقي وعلى الإنسان ان يختار بين الطاعة أو عدمها فهو المسؤول عن أعماله. وإن اعتماد الآراء الخاطئة بغير دليل معرفي يودي في معظم الأحيان، خصوصًا في القضايا الجوهريَّة، إلى خلخلة الاستقرار الاجتماعي، وإضاعة معالم الطريق المستقيم، وترويج نتائج الخطأ وكأنّها قدر محتوم، في حين أن قواعد

الشرع ونظام التوحيد تعطي المرءَ فرصة الحفاظ على جلاء البصيرة، ونفاذ رؤيتها للواقع مهما اشتدَّت عليه ظروف اختبار الحياة.

إن مذهب التوحيد يُذَكِّر بالأصول ويعتمدها أساسًا، وقد يتحدَّث البعض عن عقدة اعتماد التراث القديم في بناء المستقبل، حيث نُلاحظ ابتعاد العديد من شبابنا وشابّاتنا في هذا العصر عن منابع التوحيد الحقيقية بهذه الحجة، ولكن من غير المعقول أن يصبح الكذب صدقًا والرذيلة فضيلة، والعمل الضار يصبح مشروعًا والحقيقة افتراضًا. إن التعمق في الذكر الحكيم يكشف لبصيرتنا ان الثوابت الأخلاقية لم تتغير عبر الرسالات السماوية جميعاً، إذ أنها قائمة على قيم الصدق والإخلاص والكرامة الإنسانية وما شاكل، وهي قيم خالدة لا يمكن للإنسان أن يبلغ غاية وجودِهِ وكمالِهِ إلا بها .

إن القول اِن من حق الإنسان في عصر الذرة والفضاء والتطور العلميّ، أن يطالب بواقع يتوافق مع أحاسيسه ومشاعره، سهَّل على كثير من النّاس سبيل استباحة المحرّمات، وهتك الحياء، وإدمان العادات السيئة، والعيش في أوهام واعتبار هذا الانحلال وكأنه من مستلزمات التطوّر ! !

إن الله سُبحَانَه وتعالى خلق الإنسان وجعله أشرف المخلوقات، وخصّه بالعقل، وأمره بستر العورة، والجمال الحلال، بخلاف سائر المخلوقات الأخرى، فهل يكون فعلاً حضارياً أن تسود الغريزة مكان العقل، والرغبات الجامحة بدلاً عن إرادة تحقيق التوازن والانسجام، والمعصية باسم الحرية المزعومة، أو الوثنية الجديدة، بديلاً عن الطاعة في تحقيق الحرية الجوهرية؟ يُعلمنا أدب التوحيد أن نتجنّب هذه الأعمال لتبقى بصائرنا متعلقة بجواهر الحِكَم التي بها يتحرر الإنسان من قيود الوثنية ليكشف لنفسه فسحة الحرية والسعادة الحقيقية.

وتعلّمنا الرّسالةُ الإلهيَّة أنَّ الحكمةَ كامنةٌ في جوهر الوجود، وأنّ الكونَ دائرٌ في نظامٍ بالغ الدّقّة، وأنّ الحقيقةَ سرٌّ علينا أن نكتشفَهُ بالبحثِ المثمِر والعمَل القويم.

تاريخ: ٢٠١٣/١١/٢٦.

شيخ عقل طائفة الموحدين الدروز

الفقير نعيم حسن

بســـم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

كان الكتابُ الأوّل الصادر بعنوان "في سبيل التوحيد" محاولة هادفة إلى توضيح الأفكار الأساسيّة الصالحة لتكون مدخلا ميسَّرًا إلى فهم المقدّمات إلى العقيدة التوحيديّة. لقد تمّ صوغ النصوص استنادًا إلى مصادر أصيلة من شأنها الإضاءة على حقيقة النسيج المعرفيّ والمسلكي الذي يستند عليه الإرث التوحيدي.

كان ثمّة عناية دقيقة بأن تكون عناوين الفقرات بمثابة البذور التي من شأنها أن تُثمر في العقل والقلب الثمار الطيّبة، وأن تؤدّي في حقل الفكر إلى الوقوف عند رؤية سليمة من حيث هي مدخلَ إلى آفاق التوحيد. وهو مدخل عقائدي مبسّط، ونافذة معرفيّة تتبدّى عبرها الوشائج التي هي صلة بالتراث الابراهيمي، مع العِلم بأنّ أية محاولة لرؤية التوحيد خارج سياق هذا التراث هي محاولة هجينة وخاطئة. وقد تمّ اعتماد منهجيّة تنحو منحى النّظر العقليّ السائر نحو الإضاءة على الإمكان الرّوحي الكامن في الإنسان، في قواه الخيِّرة

وفطرته المستنيرة بفعل الإبداع، وهي منهجيّة تتميّز عن طريقة التلقين المرتكز على سرد المعلومات وحسب.

يبقى أن نشير إلى أهميّة التَّنبُّه إلى أنّ الموضوع في حدّ ذاته، ومهما كانت محاولات التبسيط وتجنّب التعقيد مبذولة، يتطلّب قراءة هادئة ونيّة صادقة وإرادة معقودة للوصول إلى ثمرة المعنى. فالتوحيد هو أمرٌ جلل، ولا بدّ أن يكون المدخل إليه، قبل أيّ قراءة، تهذيب الجوارح واستشعار هيبة الحقّ والدّخول إلى حرمه بتواضع ومحبّة.

إنّ الكتاب الحالي يستكمل ما سبق، بالارتكاز على قول مأثور يردّده الثّقات، ويسمّونه في ذاته "فضيلة"، مفاده: "علامةً المؤمن ثمانية: الدّين والدّيانة، والصّدق والأمانة، والعِلم والعَمَل، والرّضى والتسليم"، ويعتبرون أن مضامينه تلخّص الجوهريَّ في ما يتوجّب على السّالك المخلص فهمه، والعمل بموجبه بما يساعده على حضوره الوجداني في عالمه، وكيفيّات امتثاله لحقائق الوجود بطريقةٍ تحقّق الغرَض من الحياة، وتُمهّد له السّبيل إلى الوصول إلى "كماله الأخَصّ به". وبالله التوفيق في البدا والآخر.

غسان الحلبي
عضو الهيئة الاستشارية لمشيخة عقل
طائفة الموحدين الدروز

تعريف

تنتسب طائفة الموحّدين الدروز إلى مذهب التّوحيد الذي هو ثمرة طيبة من شجرة طيبة هي الإسلام الحنيف[١]. لُقّبوا ببني معروف لجمعهم مآثر الخيرات والمعرفة، واتّصفوا بالعقل المستنير بلطائف النقل[٢]. تتشابكُ جذورُهم وأواصرهم بأنساب القبائل العربيّة الأصيلة، خصوصًا منها تلك التي استقرَّت في بلاد الشّام معتنقة الإسلام، واضطلعت نخبٌ منهم بدور المثاغرة[٣] على سواحل تلك البلاد منذ القرن الثاني للهجرة ذودًا عن حماها، ودفاعًا عنها ضد الغُزاة.

يؤمنُ الموحِّدون الدروز بالله سبحانه وتعالى الواحد الأحد لا شريك له، خالقَ السموات والأرض، لا راد لقضائه وقدره، لهُ الإرادة والمشيئة، عالِمُ الغيب والشهادة وهو أحكم الحاكمين. كما انهم يؤمنون بالواسطة إليه وبملائكته ورسُله وأنبيائه الذين اجتباهم

[١] الحنيف: الموحد في دينه.
[٢] بلطائف النقل: المعاني الروحية للنص.
[٣] المثاغرة: الدفاع عن الثغور في شواطئ البحر.

مُبشّرين ومُنذرين بالرسالات والكتب السماوية لئلا يكون للناس على الله حجّة بعدهم، كما يؤمنون باليوم الآخِرِ الّذي تجدُ فيه كلّ نفس ما عملت من خير مُحضَراً وما عملت من سوءٍ تودّ لو أنّ بينها وبينه أَمَدًا بعيداً، حلالهم وحرامهم من الكتاب الكريم الذي يفصل بين الحق والباطل، ويجمع علم الأولين والآخرين ويحمل أسراراً جوهرية راسخة في معدن الحق إلى يوم الدّين.

خطأ التسمية

الموحّدون الدّروز براءٌ من الدّرزّية. ذلك أنّ بعض المؤرّخين القدامى استسهلَ نسبة أتباع المذهب إلى داعٍ مُفسِد "من عالم الضّلال" وهو (محمد بن اسماعيل الدرزي)، الّذي صار اسمُه مصدر النّسبة لقومٍ هُم منهُ براء استنادًا إلى النقض الّذي جُوبِهَ بهِ في البدايات، بسبب إدخالهِ البِدَع في الدّين. وأشيع هذا اللقب عبر التاريخ وعُرِفوا به في مراحل لاحقة. وكان الموحِّدون طيلة قرون، مستقرّين كما جاء آنفًا بالسّاحل الشامي دفاعًا عن ثغوره التي كانت رباطَ جهادٍ عن الأمّة وحِياضِها.

علامَةُ المؤمِن ثمَانية

الـدّين والدّيانـة، والصّـدق والأمانـة، والعِلـم والعمـل، والرِّضَـى والتسليم.

كلام وعظي يُنبّهُ إلى سمّو الفضيلة وشرفها، ويُشير الى المفاهيم الأساسية التي من شأن وعيها والتزامها مسلكيًا أن تُهدي النفس إلى معنى الصّلة الروحانية التي يجب على المُريد أن يتنبّه ويتهيّأ لها بين إخوانه وفي مجتمعه، وتُكسِبُهُ آداب الدِّين والأخلاق الحميدة.

إنَّ هذه "الفضيلة" لازمةٌ لكلِّ موحّدٍ مخلِص لأنَّها جمعت طرائق الدّين الأساسيَّة التي من شأن التّقيُد بها، والتَّعلُّق الصّادق بمعانيها، والالتزام المثمِر بما توجبُه من أفعال، أن تحصّن المرءَ في قواه المعنويَّة، ولطائفه الروحانيَّة، وسعيَه العمليّ في كلِّ حركاته وسكناته، بما يوصله إلى "كماله الإنسانيِّ الأخصّ به".

تؤكِّدُ هـذه "العلامـات" علـى قاعـدة "الانسـجام" الأسـاسـيَّة في المسـلك التّوحيـديِّ، والـتي بـدونها لا يتوصَّـلُ المـرءُ إلى إدراك سـرِّ الجمال في هـذا الخِيار العادل في حياته. إنَّ ارتبـاط تلك العلامات بعضـها البعض هـو الوحـدة المتكاملة الـتي تنير، بطبيعتها السـامية، قلـبَ الإنسـان، وتسـاعدُه علـى تـذوّق حالـة الصَّـفاء في الـنّفس، والطمأنينة إلى راحة الضّمير والسّريرة.

والمريدُ، حين يستمعُ إلى هذه "الفضيلة" التي هي في محلّ نصيحةٍ جوهريَّةٍ، عليه أن يتأمَّل في ما تكتنزه من معانٍ راقيـة، ودلالاتٍ بالغة الخصوبة للفكر والخاطِر. بل هـي نصيحة في محلِّ المحبَّة، تدلّه على الطّريق الواضح الّذي فيه حياة النُّفوس. نصيحة تكون له مثل الدواء الشـافي حـين تدلّـه علـى مـا يحصّـن روحـه ضـد كافّـة الاغـراءات المخادعة، فينكبُّ على ما يفيدُه وينفعه، ويقوّيه ويأخذ بيدِه إلى طرق الصّلاح والنّجاح والفلاح.

أولاً: "علامةُ"

وهي كل كيان يحمل مدلولاً"، ويتبدَّى هذا الكيان "بالنسبة للإنسان" بالأقوال والأفعال والأحوال وظواهر السّلوك والتّصرّفات وردود الفعل وما شابَه. ومعنى "يحملُ مدلولا" أي أنَّهُ يدلّ على معنى أعمّ وأخصّ من العلامة ذاتها . ومثَل ذلك إنْ قال المرءُ قولا سديدًا مُحكَمًا يكونُ مدلولُ القَول هو الصّدقُ والحِكمة، (بشكلٍ عام) والقوْلُ ذاته يكونُ علامةً على أنَّ قائلَهُ هو صادقٌ وحكيم (بشكلٍ خاص) . وفي المثَل الأعمّ، وجُود المصنوعات علامة تدلّ على وجُود الصّانع" .

والعلامة هي أيضاً السّمَةَ، أي السمت، والأكثر تداولاً في معنى السَّمْت عند أهل اللغة هو "هيئة أهل الخَير" . والسَّمتُ أيضًا هو حُسْنُ النَّحو في مسلكِ الدّين، واتّباع الحقّ والسّيرة الحميدة، وهو قريبٌ من معنى السّيما الوارد في الآية الكريمة من قوله تعالى ﴿**سِيمَاهُم في وجوهِهِم**﴾[١] حيث جاء في التفسير أنّها العلامة وهي "السَّمتُ الحسَن"[٢] .

---

[١] [الفتح ٢٩]
[٢] [الطبري]

والسَّمتُ أقرب ما يكون إلى هيئة الدّاخل التي تعكس سِماتها (أي علاماتها) على الحضور العينيّ للإنسان الخيّر. ولا يتأتّى السَّمتُ إلا عبر نسقٍ متجانس من المسالك الظاهرة المتعلّقة بأعمال الجوارح، ترفدُها بالطّبع مسالِك باطنة متعلّقة بحركةِ القلبِ والعقل والجنان.

ثانيًا: "المؤمن"

اسم يدل على ارتباط الانسان بالتعاليم التي سنّها الله سُبحَانه وتعالى لعبادِه.

والمؤمنُ هو مَن صدّق (آمَنَ) فوَحّد. صدّقَ بوجودِ الله المنزّه العدْل، وصدّق بأنبيائه وتعرّف إلى وحدانيته وربوبيته مِمّا بلّغوهُ من رسالات لهَدْي الخَلق كافّة إلى دوحة الحقّ، وصدّق باليوم الآخِر، وبأنّ ﴿مَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[1] وصدّقَ أنِ الحُكم يومذاك للواحِد القهّار.

وقلبُ المُؤمن العارف ذو صِلَة راسِخة بالتّوحيد. وإيمانُه هو في الحقيقة تصديقٌ يوطِّدُ في ذاتِه الثّقة بالحقّ، وإظهار الخضُوع

[1] [الزلزلة ٧-٨]

لمُوجبات اكتِسَاب الفَضِيلة، وقبُول الأمر والنَّهي لارتباطهما الوثيق والجوهريّ بضوابطِ النَّفس عن الوقوع في عبَثِ الهوى والنَّزَق. جاء في الحديثِ الشَّريف: "أَلاَ إنَّ في الجسَدِ مُضْغةً إذا صَلَحَت صَلَحَ لها سائرُ الجسَد، وإذا فَسَدَت فَسَد لها سائرُ الجَسَد، ألاَ وهيَ القلْب".

والمُؤمنُ حامِلُ أمانَة، "فمَن أضمَرَ منَ التَّوحيد مثل ما أظهَر، فقَد أدَّى الأمانة"، وتأديتُها المُثمِرة مرتبطةٌ بالصّدق فيها والإخلاص قوْلا وعقْدًا وعمَلا. وهذه التأديةُ لها بين أفراد المجتمع علامات تقع موقعها من نظرهم وخواطرهم خصوصًا عندَ أصحاب الفَضل والسَّبق في المسلك. حيثُ انَّ سائرَ حركات المُوَحّد وسكَناته، بظاهرها في عَين الخَلق، وبباطنها في عين الخالق، هيَ "أفعال تُحيل على طريقةٍ في الوجُودِ والفِعل والإحساس"، أي في الاداء والسلوك وفي استشعار النفس لها، يتلقّاها الآخَرُ بشكل علاماتٍ دالَّةٍ على موضُوعها الأعمّ والأخصّ والَّذي يُفتَرَضُ أن يكونَ في هذا الحال التّوحيد، وميدان الوعي الفسيح فيه، والّذي يراه كُلٌّ وفق استطاعته ومقدار اتّزان سجايا الخير في قوَّة عقله المستنير بالإيمان.

ثالثًا: "ثمـانيَة"

لقد أدركَ الأفاضلُ الأقدمون سرّ معنى التَّناسُب الضّروري بين مختلف أحوال النّفس ومعارفها ومسـالكها، فجعلوا **العلامـةَ ثمانيـة**، وهي منسجمة، مترابطة، متَّصلة، في نسق واحد وانتظام وائتلاف وارتباط متين، ومتوازنة إلى الحدّ الّذي يصيّرها علامة واحدة هي التَّوحيد وثمرته الجوهريَّة في النَّفس الموحّدة. وهذا يعني أنَّ على المريد أن يعي أنَّ تلقّي العقيدة والتزام ما تقتضيه من مسالك (**الدّين والدّيانة**)، هو أمر متلازم مع وجوب تنقية نيَّته وإخلاصه في معاملاته (**الصّدق والأمانة**)، كما هو مرتبطٌ بالضّرورة مع ترقّيه في المعرفة وفق قدرته، وإدراكه درجة البلوغ (**العِلم والعمَل**)، وكلّ هذا يندرجُ في منحى قبول الأمر، والمبادرة إلى تحقيقه وفق المنهج المستقيم (**الرِّضى والتّسليم**) . ولا يُخفى سرُّ استِمداد البرَكة من معنى الثمانيةِ الوارد في الآية القرآنيّة الجليلة ﴿**وَيحمِلُ عرشَ ربّكَ فوقَهم يومئذٍ ثمانيَة**﴾[1] . إن مُجمَل هذه الأفعال صنّفها الشيوخ الأَفاضل وفق ترتيبٍ حكيمٍ جامعٍ لعَلامَة المؤْمنْ التي هي طريق الى السعادة الحقيقية.

[1] [الحاقّة ١٧]

الفصل الأوَّل

الدِّيـــن

الدِّين هـو التوحيـد، وهـو الصلة بين العبـد والمعبود، والخالق والمخلوق، والرازق والمرزوق، والواسطة بينهما .

ولمَّا كان أمرُ الدِّين من أجلِّ الموضوعاتِ التي يجابهُها المرءُ في حياتـه لتعلُّقِها المباشَر بمسـائل اعتقاداتـه العقليَّة والقلبيَّـة والرُّوحيَّـة، وبالتّالي، بمسالكِه وأعماله وطرُق عيشه ومعاملته لنفسه وأهله وعائلته وأبنائه وسائر علاقاته بالمجتمع و وُجوه الحياة، وارتباط كلّ ذلك بمصيره ومآله في الدّنيا والآخِرة، فقد وجَب أن لا يُسلِّم قيادَ روحِه في هـذا الأمـر الخطير إلى "الآراء والأهـواء"، أي أن يـرى الأمـور وفقًـا لآرائـه ولطريقة فهمه، وإلى ما يتوهَّمُه المدَّعون من أفكار شتَّى، بل عليه السَّعي وفق ما يقتضيه العقلُ المستنير بالحقّ، وما تُملِيه أصُولُ الأعراف ونهج الصّدق، ليكونَ سبيلُه في طلبِ الحقيقةِ مرتكِزًا إلى النَّهج السليم، والطّريق المستقيم ممتثلاً في ذلك ما جاء في الوعظ التوحيديّ القديم:

"فَكُلٌّ منَ الجَنَّة والنَّار لها سبيلٌ ودَليلٌ ورفيقٌ. أَمَّا الْجَنّة فلها سبيلٌ سهْل وهو الطّاعة، ودليلٌ صادق وهْو كتابُ الله تعالى، ورفيقٌ أمينٌ وهْو العملُ الصّالح. فرَحِمَ اللهُ مَن نظَرَ فاعْتَبر، وعَلمَ فعَمِل، وعمِل فأخْلَص"، قال تَعَالَى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ .[1]

أُسُس الدِّين

جَمعَ التَّوحيدُ ثِمارَ الدَّعوة إلى معرفةِ الباري تعالى وطاعته في كلِّ العصُور منذ بداية الخلق. فالتراثَ الدّينيّ يختزنُ معاني الإيمان منذ بدايات التّاريخ المعروف. وقد أشار القرآنُ الكريمُ إلى قِدَم الإيمان بقوله تعالى: ﴿إنَّ هذا لَفِي الصُّحُف الأولى﴾[2]. مثل صحف "شئت" وصحف "إبراهيم"(ع). والتي تلاها التّوراة والإنجيل والقرآن من حيث هي رسالات بالدَّعوة للتَّصديق والإيمان بالله تعالى إيمانًا مستنيرًا بلطائف إشاراته، وحكمةِ دلالاته، ومعاني آياته، بما

[1] [الحديد ٢٨]
[2] [الأعلى ١٨]

اكتنـزتها مـن معـاني الـدِّين وشـروطه رحـمةً لـبني الإنسـان ونِعمـةً وهدًى.

لذلك، فإنَّه من أشرف الأمور وأعظمها أن يستقي المرءُ من ينابيع الرّحمة ما يُحيي قلبَه، وينير روحَه، ناهلا منها ما يُعلِّمُه قواعدَ الاعتقـاد والسـلوك، وفـرائضَ الآداب والتَّحقُّـق، ليترقَّـى في مـدارج المعرفَة إلى ما من شأنه أن يُدركَ به غاية الإنسانيَّة ومقاصد وجودها في العالَم، فلا شيء في هذه الحياة الدّنيا أكثر جوهريَّةً، وأكمل معنًى، من الوصول إلى هذا الغرَض الشَّريف الّذي به تتحقَّق كرامةُ الإنسان وشرفُه الأبقى لأنَّه ثمرةُ الهداية والطّاعة والإقرار.

ولا بدَّ للموحّد من أن يعي إيمانه التوحيدي كشجرة طيّبة ذات جذور راسخة منذ القِدم، وجذع ثابت على مرِّ الزّمَن، وغصُون عالية في فضاء المعرفة، وثمار تحمل الغذاءَ المبارَك لعقل الإنسان وروحِه، وهو غذاءٌ يُحييه ويوصلُه إلى التَّحقُّق بمعاني السَّعادة الإنسانيَّة الحقيقيَّة التي بها يصُون حياتَه، ويزرعُ في تربةِ مصيره آيةَ الخلاص والثَّواب.

مرجعيَّة الدِّين: الدَّعوة

يُستقى عِلمُ الدِّين من ينبوعِه الأصل، أي ممَّا شرَّعهُ اللهُ تعالى بواسطةِ رُسُله من أصولٍ وتعاليم. وتُعتبَر هذه الأصُول "حجَّة الله" على خلقه. فالدَّعوةُ إذن مبنيَّة، وفق ما جاء في الآيةِ الكريمة، على ما ﴿**شرَعَ لكُم منَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نوحًا والَّذي أوحَينا إليكَ ومَا وصَّينا بِهِ إبراهيمَ وموسَى وعِيسى**﴾[1]. وأصلُ الوصيَّةِ واحدٌ و"مُشترَكٌ فيما بينهُم"[2]، ويكونُ **العقلُ** المُستنير بالإيمان والمعرفة حجَّة على المرءِ كي يُميِّزَ في ذاتِه، بنُور الدَّعوة، بين أفعاله المحمودة وأفعاله المذمُومة، وبينَ الحلال المُحيي والحرام المُميت، وبينَ المعروف والمُنكَر من الأمر والنَّهْي، لأنَّ بهذا التَّمييز يستشعرُ المرءُ حقيقةَ الدِّين وغاياته، وبه يقطفُ الثِّمارَ التي بها تكونُ حياةُ القلوبِ والأرواح.

---

[1] [الشورى ١٣]
[2] (البيضاوي)

معاني الدِّين وشُروطُه

من الواجبِ على الموحّد أن يقفَ على الوجُوه العديدة المقصُودة توحيديًّا بمصطلح الدِّين ومعانيه وشروطه.

١- الدِّينُ هو الإيمان، ومَا يؤمنُ به الإنسانُ هو ما يقودُهُ الى مصيره، فالدِّينُ الحقّ هو لله، اي الإيمان بوجودِهِ منزَّهًا حاضرًا، والطاعة له بُحسن النيَّة وخالص القوْل والفعل، والتّعبُّد لهُ على بصيرةٍ وهدى. الإيمان بالله منبع الفضائل، يضفي على النفس طمأنينة ويبعث فيها نورًا تسترشد به في ظلمات الحياة، فلا يأس ولا قنوط مع الإيمان بالله تعالى.

٢- الدِّينُ في جوهر معناه هو الطّاعة، والطّاعة لا تكون إلا عن أمر، فإن أطاع الإنسانُ أمرَ الله، كان مسلكُه مسلكَ التّوحيد. والتّوحيد هو للباري سُبحَانَهُ. لذلك اقتضت حكمةُ الله تعالى أن يكونَ شأنُ الدِّينِ الحقّ مرتبطًا بالدَّعوةِ إليه بواسطةٍ مؤيَّدةٍ بنوره إلى الرُّسُل في كلِّ عصرٍ وزمان.

٣- الدّينُ في اللغة هو الجزاء والمكافأة، اي تُجازَى بِفعلكَ وبحسب ما عمِلت. ولله وحده الكلمة الفصل يوم البعث والنشور، قال تعالى: ﴿ **يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإنْسَانُ مَا سَعَىٰ**﴾[١]، كما قال: ﴿**مَالك يوم الدّين**﴾[٢] أي "مالك لأمور العالَمِين يوم الثّواب والعقاب"[٣]، فيكونُ الدّينُ هنا بمعنى الجزاء "يوم يُدانُ النّاس بالحِساب"[٤]، كما قال عزَّ وجلّ ﴿**وَنَضَعُ الموازينَ القِسطَ لِيَوم القِيامةِ فَلاَ تُظلَمُ نَفْسٌ شَيئاً وإن كَانَ مِثقَالَ حَبَّةٍ مِن خَردَلٍ أَتَينَا بِهَا وكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ**﴾[٥]. والمرءُ العاقلُ يدينُ نفسَه اي يحاسبُها. فإذا حاسَبها برأيه وقياسه اضطرب وضاع، لأنّ النّفس أمّارةٌ بالسّوء من دون حُجّة الحقّ والعقل عليها، فوجَب أن يُحاسبَها بميزان الصّدق والعدل أمام مرآة الله، أي رسالته المعهود بها لأنبيائه العظام. والباري تعالى هو في كلّ حال محبَّة ورَحْمة، غفورٌ للتائبين.

---

(١) [النازعات ٣٥]
(٢) [الفاتحة٤]
(٣) (البيضاوي)
(٤) (الطبري)
(٥) [الأنبياء ٤٧]

إنَّ عاقبَةَ الطّاعـة والتـزام جانـب الفضـيلة التَّوحيديَّـة، هـي استشعار رضَى الله تعالى حيث تتخلَّص النّفس من مشاعر القَلق والاضطراب والفراغ الناتجة عن سطوة مفهوم السّعادة المزَيّفة ومظاهرها الخدّاعة على عالمنا الحديث. والشّعور بالرِّضى هو في حقيقته صلةٌ بالحقّ حيث تتيقَّن النّفسُ من رَوعة جَمال الفضيلة في الرُّوح، ويكون لها ذلك بمثابةِ مكافاة لها على إخلاصها ونقاء إرادتها في طلب الحقيقة.

٤- **الدِّينُ هوَ الحقّ** حيث يتوجَّبُ على المرءِ أن يعرفَهُ بنفسٍ متغلّبةٍ على نوازع الهوَى، لأنَّ في النَّفسِ قوى مضادَّة لحكمة العقل الطّائع، وقد جاءَ في سُورة يوسف (ع) **﴿ومَا أُبرّئُ نَفسي إنَّ النَّفسَ لأمّارةٌ بالسُّوءِ إلاَّ ما رحِمَ ربّي﴾**[1]، قال الطّبري في تفسير الآية "إنَّ النّفوسَ نفوسَ العِباد تأمُرُهم بمَا تَهواه وإنْ كان هَواها فِي غير مَا فِيه رِضا الله". لهذا كان من الضَّروريّ أن يتنبَّهَ الإنسانُ في سعيِه للاطّلاع على حقائق الدِّين كَيْ ينهجَ

---

(1) [يوسف ٥٣]

النَّهجَ الصَّحيح، يُهَيِّئَ نفسَهُ ليكونَ حاضرًا ببصيرةٍ صافيةٍ، وقريحةٍ لمَّاحَة وهي جودة الطبع في الفهم والاستنباط، وذِهنٍ متوقّدٍ قدر الوسع والاستطاعة، ليقتبسَ من أنوار المعاني الحميدةِ ما يُحيي قواه اللطيفة الكامنة في روحه التي من شأنها وحدها إدراك جوهر الدّين وفقًا للطريقةِ المستقيمةِ التي تحصّنُه من كلِّ الأخطاء البغيضة، لأنَّ الخطأ في هذا السَّبيل يودي بالنَّفس إلى الظّلمات وَالمهالك.

لذلك، فإنَّ **لِمَلكةِ التَّمييز** عند الإنسان أهميَّة أساسيَّة من شأنها أن تُبقيه على الطريقِ المستقيم ليختارَ بها "سبيلَ الرُّشدِ على سبيلِ الغَيّ، وتوطين النّفس على أنَّ من عملَ خيرًا يُجزَى به"[1]. والتَّمييزُ مطلوبٌ يُدرَكُ به الدّينُ الحقّ منعًا لجُنوح النَّفس إلى الرّأي والقياس والهوى.

قال تعالى ﴿**هُوَ الَّذي أرسلَ رسُولَهُ بِالهُدى ودِينِ الحقّ**﴾[2]، وسمّاهُ ﴿**الدّينُ القَيّم**﴾[3] أي دِين الله المستقيم الَّذي به يهتدي

[1] (المهذَّب)
[2] [التوبة٣٣]
[3] [الروم ٤٣]

المرءُ إلى الاستقامة دون إشراك، والاستقامةُ تعني الإخلاص والثَّبات واتّباع موجبات الأمانة "والقيام بين يدي الله تعالى على حقيقة الصّدق، والاستقامة في الأقوال بحفظ اللسان، وفي الأفعال بترك البدعة والفواحِش والـمُنكرات، وفي الأعمال بنفي التّواني والفترة، وفي الأحوال بنفي الحُجبة والغفلة"[1]، فإذا صفت النّيَّةُ، وحسُن العملُ، واستقرَّ الحالُ بالرّضى والتَّسليم، تحقَّق للموحّدِ ما قصدتهُ الآيةُ الكريمةُ التي جاء فيها **﴿أَلاَ لِله الدِّينُ الخَالِصُ﴾**[2] الَّذي بهِ يكونُ التَّوفيقُ والثَّواب والمشاهدَة. ولا يصحُّ نقاء صورته في القلب إلاَّ بالبراءةِ منَ الشّركِ في كافّة وجُوهِه، والشّركُ هوَ أن يدخلَ القلبَ اعتقادٌ لا أَساسَ لهُ في منهجِ التَّوحيد.

٥- الدّين في وجهٍ أيضًا، هو الالتزام بالفرائض، وفرائضُ الله هي حدودُه التي أمرَ بها ونهى عنها وبيَّنها وأحلَّها (المهذَّب) فيما ينبغي على الإنسان أن يتَّخذه سبيلاً واضحًا ناصعًا في أمور

---

[1] (المهذَّب)
[2] [سورة الزمر٣]

الاعتقادات والعبادات والمعاملات. فمِنَ الأُولى الإيمان بالله ورسُلِه وكتابه واليوم الاخر، ومن الثانية الصّلاة والصّوم والزّكاة والحجّ بمعانيها وغاياتها، ومن الثالثة سائر أعمال المرء وتصرّفاته في روحِه وجسمه ومالِه وولدِه.

٦- الدّينُ هو حقيقةُ الإرادة الإلهيَّة في أمر الكينونةِ المعبَّر عنه بقوله **﴿كُنْ فيَكُون﴾**[١]، ولا فكاكَ للإنسانِ من هذا الرّابطِ الوجوديّ الأَصْلِ المزروع في **﴿النَّشأةِ الأولى﴾**[٢]، والَّذي يُمكِن شرحُهُ بما جاء في الآية الكريمة **﴿فِطرَةَ الله الّتي فطَر النّاسَ عَلَيها لا تبدِيلَ لخَلق الله ذلكَ الدّينُ القَيّمُ﴾**[٣]. بهذا ثبت عدلُ الله في خَلقِه إذ **﴿أَشهَدَهُم عَلى أنفُسِهِم أَلسْتُ بربّكُم﴾**[٤]، وتُعتَبَرُ هذه الشَّهادة في الكتاب العزيز "عهْدًا" و"ميثاقًا" "عَلى أُنْفُسِ الخَلق قاطبةً للهِ أن يعمَلوا بِما عُهِدَ إليهم"[٥] مِن بَعدِ مَا أَوثَقوهُ بِهِ مِنَ الإقرَار وَالقبول[٦]. "هَذا العَهدُ يَتذَكَّرُه أهلُ اليَقظَةِ كَمَا قالَ ذُو

[١] [مريم ٣٥/ يس ٨٢]
[٢] [الواقعة ٦٢]
[٣] [الروم ٣٠]
[٤] [الأعراف ١٧٢]
[٥] [الطبري]
[٦] [البيضاوي]

النُّون المصْريّ وَقَد سُئِلَ عَن سِرّ مِيثاق "أَلَسْتُ بِرَبِّكُم" هَل تَذكُره؟ فقَالَ: نَعَم، كَأَنَّهُ في أذني"[1].

٧- <u>الدّين عقيدة ومسلك:</u>

– الدين <u>عقيدة</u>: تلخصُها الآية الكريمة ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ**﴾[2]، لكنّه بواسطته كانت الرحمة للعالمين لمعرفته على الحقيقة، كما قال: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾[3] وجاء في "روح البيان": "حقيقة دينُ الإسلام التّوحيد، وصورته الشّرائع التي هي الشّروط، وهذا الدّين من أوّل الزّمان إلى يوم القيامة واحد بحسب الحقيقة". وهو ما سلِم منه الموحّدُ من التباسات الضّدّية، ونوازع النّفس إلى هواها، ومزالق الرأي والقياس بعيدًا عن صراط العقل المستقيم. لذلك، وجبَ على العاقلِ أن يثبّت روحه في اعتقادٍ صادق مستمَدّ من التّعليم النبويّ الّذي هو متّصلٌ بالحقّ ومؤيّدٌ منه في كلّ حين، وهو العقيدةُ

(١) [روح البيان]
(٢) [سورة الاخلاص]
(٣) [الأنبياء ١٠٧]

التي يجبُ أن تكون بمنأى عن الخطأ والتشويش، ويجب على كل امرئٍ أن يحترم عقيدة مذهبه بروح الحاجة إلى الحقيقة بدون مجادلة في أمر الله. أما العلاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان فهي في المسلك والمعاملة.

- الدِّين مسلك: إنّ الاختبار الحقيقيّ للموحّد هو في حقل التزامه مسلكيًا بما تُمليه عليه الحِكَمُ من موجبات، وما يفرضُه العقل من التزام ضابطٍ للنّفس كي لا تكون عرضةً للغفلة والإهمال والجنوح في دروب الهوى الوعرة. لذلك، فإنّ الموحّدَ هو الّذي يستشعرُ بساطة الوحدة المعبَّر عنها في التّوازن الجوهريّ بين الأقوال والأفعال ليكون إذّاك واحدًا في نيّته ولسانه وقلبه وحركاته. فالإتّزان إذاً، يفرضُ ظهور ثمرة الاعتقاد بالأعمال، وهو ما يُسمَّى المسلك، أي السلوك بما حدَّده الشرع والابتعاد عن المحرّمات، وهو سيرة المرء التي يُظهرها ثباته المديد في الطّاعات والتزام الطريق المحمود. هكذا يعبّرُ الموحّد عن حقيقة صدقه، أي تصديقه، بفرائض الدِّين، وآداب التّوحيد.

الفصل الثاني

الدِّيـَانة

كيف يعبر الموحّد عن مُعتَقَدِهِ؟

إذا صحَّت ديانةُ المرء فهي الدِّين بمعانيه المحقَّقة. فإنْ كان الدِّينُ هو ما ينبغي للموحِّد أن يعتقدَهُ في قلبه وخاطرِهِ عن معرفةٍ صحيحة، فإنَّ الدِّيانةَ هي كيفيَّات تعبيره الرُّوحيَّة والمسلكيَّة عن ذلك الاعتقاد، وما يتَّخذهُ له من مسالك يريدُ بها تحقيق غاية الدِّين وأصُوله الصَّحيحة. بهذا المنحى، فإنَّ المرءَ واقعٌ، بحُكم تضادُد قوى النّفس فيه، تحت إمكان الصّواب والخطأ، والقوَّة والضّعف، والاتّزان والاضطراب، وفقًا لما يبذله من همَّة، أو يبادر إليه من عمل، أو يجهد فيه لتنقية نيَّته من الشوائب والالتباس. لذلك، يرجو الشّيخُ الفاضل (ر) من الله تعالى سائلا متضرّعًا أن يَمُنَّ "علينا بحسن نيّاتنا وصحَّة دياناتنا . . ."، ممَّا يشهدُ بأنَّ ديانةَ المرء هي إخلاصه

في مقتضيات الطاعة للحقّ، وثباته في طلب الفضيلةِ والمسلك الصّدق وفي امتحان التزامه بقواعد الأمر والنَّهي. وإنَّ الانزلاق مع نوازِع الهوى وارتكاب الذنوب هو بابٌ إلى المعصية التي من شأنها الطّعن بصحَّة الدّيانة ما لم يتداركها الإنسان بالاعتراف والتَّوبة وحسن الاستغفار.

شروط الدِّيانة

الرِّسالةُ التَّوحيديَّةُ موجَّهةٌ الى القلب مباشرة، بما يسكن فيه من لطائف الروح، والقلبُ في المعنى الأصيل القديم هو "خزانة العبادة" حيث سكنت فيه الرّوحُ والنورانيَّةُ وضياءُ العقل الأرفع. هذا يعني أنَّه من دون صفاء القلب لا يُمكن للمرءِ أن يلتقطَ الإشارة الصحيحة لِعلم التَّوحيد، حيث أن أمانة القلب "مُراعَاةُ الحَقّ عَلى دَوام الأَوقَات حتَّى لاَ يُطَالِع سِواه، ولاَ يَشهَد غَيرَهُ، ولاَ يَسكن إلاَّ إلَيْه"[1].

[1] (السلمي)

والنَّفسُ إذا أشرق فيها نورُ العقل بالمعرفةِ السَّليمة، تُدركُ جمالَ التشبُّث بالأخلاق الحميدةِ، فالمبدأُ القائلُ بوجوب التَّحلّي بأدبِ الدّين من قبل الدّين هو مبدأ راسخ في أصُول التَّعليم التَّوحيديّ، فتراها نافرةً من الكبر والحسد والانفعال الرَّخيص، ملتزمةً حُسن الخُلق والمعاملة كيفما دار بها الحال تأبى الوقوع في الغِيبة والنَّميمة واللغو الَّذي لا جدوى منه، أو الجنوح نحو المحرّمات والخمور، أو كشف الأجسام والعورات، فترقى بها الفضيلةُ إلى مقام الهيبة الإنسانيَّة حيث يتيقَّنُ المرءُ معرفةَ الحقّ واتّخاذه مرآةً صادقة، وهذا هو المرقى الشَّريف، والغاية السَّامية التي لا يضاهيها أيُّ مطلب دنيويّ.

وإذا سمت النَّفسُ الفاضلةُ إلى مراتب الأُنس بالله، تجدُ في معارف الدّين بابًا إلى كلِّ الحقائق، ومدخلاً الى كلِّ سرّ وفق استطاعتها وتحقيقها، لذلك يُقال: عبادة الخالق على عدد أنفس الخلائق، بمقتضى الحق وقواعد الدّيانة التي بها تتفاضل النفوس إذ أن المؤمنين منازل ودرجات.

معرفة الرّبّ سبحانه

قيل: "أوَّل الدّيانة بالله معرفتُه، وكمالُ معرفتِه توحيدُهُ، وكمال توحيدِهِ نفْيُ الصفات عنه" . والمعرفةُ لا يُمكِن أن تُستَقَى إلاّ من الواسطةِ الأصل التي هي صفيّ الباري ورسوله الأكرم، وما أتى به بالتأييد من الدَّعوة إلى الواحد الأحد، الموجود لا كوجود المخلوقات، والمنزَّه عن العدم حاشاه سُبحَانَهُ من ذلك. لقد عبَّرت الآيةُ الكريمةُ بأجمل تعبير عن صورةٍ منَ الصُّوَر التي تُمكّنُ العقلَ الإنسانيّ من الوقُوفِ على وجهٍ من أوْجُه جمال الوجود الإلهيّ، حيث جاء فيها: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[1]، "هادٍ (بصفيّه) مَن في السَّموات والأرض، فهُم بنُوره إلى الحقّ يهتدون، وبهداه من حيرة الضّلالة يعتصمون"[2] . "وكما أنّه لا ذرَّة من نُور الشَّمس إلا وهي دالَّة على وجُودِ الشَّمس النيّرة، فلا ذرَّة من وجُود السَّموات والأرض وما بينهُما إلا وهي بجواز وجُودها دالَّة على وجُوب وجُود مُوجدها"[3] .

---

[1] [النور ٣٥]
[2] (الطبري)
[3] (الغزالي)

إنَّ صفاءَ مرآة النفس سبيلٌ إلى المعرفةِ. ومعرفةُ الخيرِ موصولةٌ بالحقيقة، ذلك أنَّ النَّفسَ الطائعةَ قادرةٌ على الاتّحاد بلطائف العقل الشريف. وهذا الاتّحادُ يفتحُ لها بابَ التَّوفيق إلى إدراكِ الحقائق الإلهيَّة، وأوَّلُها استشعاره موجودًا بالقدرةِ والكمال. ومع وجودِه فهو منزَّهٌ عن جميع الأقوال والأحوال والأفعال. وكما قال أحدُ الواجدين:

فلا هوَ في وَصلٍ بمتَّصلٍ ولاَ بمنفصلٍ عنّي وحاشاهُ منهُما
وما قدْرُ نفسي عندَ جانبِ قدرِه وأينَ الثرى من رفعةِ البدر إنَّما
أشاهدُهُ في صفو سِرّي وأجتلي جَمالاً تعالى عزُّهُ أن يُقَسَّما
كما أنَّ بدرَ التَّمِّ يُنظَرُ وجهُهُ بصَفوِ غديرٍ وهوَ في أُفقِ السَّما

محبّة الله تَعَالَى

إنّ أحد أهمّ الثّوابت في المأثور التّوحيديّ أنّه لم يكن للعقل أن يعرفَ اللهَ إلاّ بالله. ويمكن للمرءِ أن ينفذ إلى تجليات المعاني الإلهيّة بكلّ كمالها وجمالها عبر الحقائق المعبَّر عنها بالأسماء الحسنى ومقاصدها السّنيّة، ومنها أنّه سبحانه وتعالى ﴿**رَحِيمٌ وَدُود**﴾[1].

[1] [هود: ٩٠]

و"الودّ هو خالص الحبّ وألطفه وأرقّه، وهو من الحبّ بمنزلة الرِّقّة من الرَّحمة"[1] . إنّ الرّحمة الشاملة التي أحاط اللهُ عزّ وجلّ بها خلقَه هي عينُ الحبّ، ذلك أنّه أوجدهُم، وحبَاهُم بإنعامه التي لا تُعدّ ولا تُحصى. فهوَ الّذي خلقَ الخَلقَ لا عن مِثال، وأظهر الوجودَ بالقدرةِ الرَّبّانيَّة على غايةٍ من جلال الصُّورة وجمالِها، وَدقائق الحِكمة، ولطافة التَّدبير، وسموّ كَمَال المحبّة الربانيّة التي أوجدت الإنسانَ في أحسن تقويم، وميّزته بالعقل عن سائر المخلوقات، وسخّرت لهُ الأرضَ وخيراتها، والأكوان ومساراتها .

إنّه لا يُمكِن للإنسانِ أن يسلكَ السّبيلَ السويّ إلى المعرفة الرّبّانيّة دون استشعار تلك المحبّة، ودون تلمّس الطّريق إليها بالحبّ عينه. قيل "إنّ المحبّة هي روح الأعمال"، لأنّها طهارة للقلب، وصفاء في النيّة، ودافعٌ لطيف للثبات على الإخلاص. والمحبّة في قلب الموحّد حين يروي جذورَها الصّدقُ، أي حين يكون المسلكُ موافقًا لأمرِ الله، ونائيًا بالتقوى عن نهْيِه. تقوى المحبّةُ وتزداد طبقًا

---

[1] (ابن القيّم)

لانعكاساتها الحقيقيّة في الرّوح، لذلك تقول الآيةُ الكريمةُ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾[1].

المحبّة الخالصة لله تعالى تُنيرُ بصيرةَ المرء، وتُحيي فؤادَهُ، وتُغذّي لطائفه الرّوحيّة لتتغلّب على نوازع الهوى والطّبع في نفسِه. والصّدقُ في المحبّة للحقّ من شأنِه أن يدفعَ المخطئ نحو أبواب التّوبة، والتماس العفو والمسامحة من ربّ كريم حليم، لأن المحبة تدفع الى رضى المحبوب.

المحبَّة ترتقي بالمُحِبّ الصّادق درجَات. فهو إن كان طالبًا للحقّ، ومريدًا للخَير، استشعرَ وجودَ باريه، وأنس إلى ذِكره اعترافًا بالفَضل والنّعمةِ والإحسان. إنّ الثَّباتَ في هذه المحبَّة، مع صالح الأَعمال، تُثمِرُ في القلبِ مَعرفةً مضيئةً بلطائف المعاني، وحميد الإشارات، وهذه محبّة الصّادقين الّذين حقّقوا في ذواتِهم الغاية من العِلم الشّريف، وثمرته الفريدة.

---

[1] [البقرة ١٦٥]

إنّ ارتباطَ الموحّد بهذا التحقّق في قلبه وسريرته، يُحيي فيه حرارة الشّوق إلى جمال الفضيلة. وتصبحُ المحبَّة وجْدًا يكابدُهُ العارفون الّذين صدقوا الله ما عاهدهُم عليه، فلا يأنسُون إلا بانعكاس النّور في مرآة القلب، ولا يألفون إلاّ ما تُمليه عليهم حقائقُ العقل المستنير الطائع الّذي يكتملُ بِهِ الجوهرُ الإنسانيّ الأرفع.

ومن أشعار رابعة العدوية (ر):

حبيبٌ ليس يُعادِلُهُ حبيبُ   وما لسواه في قلبي نصيبُ

حبيبٌ غاب عن بصري وشخصي   ولكن عن فؤادي لا يغيبُ

وفي الخلاصة، محبة الله استشعار وجودِهِ، وكلما زاد الاستشعار، زادت المحبة، ولا محبة دون معرفة، ولا معرفة دون دليل، ومن عَرَفَهُ حق معرفتِهِ توكّل عليه في جميع أموره.

مخافة الله: خشية الذّنوب

يكرّرُ السالكون المأثور الذي جاء فيه: "الخوفُ والرّجاء جناحا العمل لا يطيرُ إلاّ بهما". يقصدون بذلك أنّ مسلكَ التّوحيد لا يصحّ دون استشعار هيبة الله تَعَالَى، والخشية من الذّنب وعواقبه العسيرة، ودون حسن الظّنّ برحمة الله تعالى، حيث القول المأثور: "رأس الحكمة مَخَافة الله".

جاء في الحديث الشّريف: "إن الله عزَّ وجل قال: أنا عِند ظنّ عبدي بي، إنْ ظنَّ بي خيراً فله، وإن ظنَّ شراً فله"، وهذا من عين اليقين بسموّ الحقّ، وجمال الفضيلة، وجلال الميزان العدل في روح الإنسان. ويدخل هذا الظنّ في خِيار المرء وإرادته. فإذا ترسّخت عقيدتُه في محبّة الله تعالى (كما ذُكِرَ سابقًا) من حيث هو الخير المطلق، فُتِح له باب المعرفة، واستنارَت بصيرتُه، وتهيّأت لطائف روحه لدرك المعاني الجليلة، والمقاصد الشريفة التي تمكّنُه من سلوك سبيل التحقّق الأرفع الّذي به كمال الإنسان وسعادته الجوهريّة، فيخشى من المعاصي والذنوب باعتبارها سببًا للانقطاع من رحمة الخالق.

إنّه في مرآة الحقّ هذه، يدركُ الموحِّدُ المدى الخطير الّذي يمكن أن يقوده الذّنب إليه. لذلك، هو يخشاه ويحذر منه، فإذا ضعف وزلّت قدمه سارع إلى التّوبةِ والاستغفار، وإلى تجديد العزم على العودة بالعقل وعلومه المحمودة، إلى المسلك الأشرف القائم على تهذيب النّفس وإصلاحها، وتثبيت خِيار الخير بالشجاعة والإرادة والهمّة المرتبطة بالسّعي إلى الأرقى والأبقى والأصلح.

أمّا الغفلة، فهي التي تقودُه بعيدًا عن الحقيقة، إذ تتحكّم به أهواءُ النّفس ورغباتِها النزّاعة إلى الإفراط، فتنطمسُ معالمها، وتستبدّ بها حاجات الجسد إلى أن تتجاوز كلّ حدّ. وبهذا، تُصبحُ عرضةً لارتكاب الذّنوب والآثام، وتصيرُ المعصية نهج حياة تطاله في أعمال جوارحه، وخواطر قلبه، ومسارات فكره. وكذلك في طرائق ملبسه ومأكله ولهوه. كلّ هذا يُسهمُ إسهامًا أساسيّا في بُعدِه عن سكينة النّفس واستقرارها في فسحة العقل الطائع. ويصيرُ لها الذِّكر ضربًا من ضروبِ الكلام الّذي ليس له صلة بالواقع. لهذا قال السيّد الأمير (قَ):

"ما من محنة في هذا الزّمان أشقّ من موت العقل والجنان".

وفي الخلاصة، مخافة الله استشعار هيبته، والخشية منه، فإذا ازدادت الخشية، ازداد طلب الرحمة من الله والطمع برضوانه.

الواجباتُ المُفتَرَضَة

تُسمّى الواجباتُ، المرتبطةُ بقوام المسلك التَّوحيديّ وصحّته مُفترَضات، يلتزمُ بها الإنسانُ، ويبذل جهده فيها بالطّلبِ والمثابرة، واجتنابِ ما يخالفُها من المعاصي والشّبهَات، واكتساب ما يقوّيها من الفضائل والعلوم المحمودات، كي يكسبَ بها خصال الخير التي من شأنها وحدها أن ترقى به إلى حدِّ البلوغ في التَّوحيد.

وأصلُ المفترَضات هو الأركانُ التي بُنِيَ عليها الإسلامُ لتكونَ دعائمَ الدِّين من حيث إقامة الشَّعائر وفق الأصُول. وهذه الأركان مرتبطة بالشرائع السماوية كما ورد في الصُحُف الأولى. والمعلوم عن النبي هرمس(ع) أنه دعا الى دين الله عزَّ وجلّ والقول بالتوحيد وعبادة الخالق، وتخليص النفوس من العذاب. وأمرهم بصلوات ذكرها

لهم. . .، وصيامٍ في أيام معروفة من كل شهر. . .، والزكاة عن الأموال. . . .

ويذكر التاريخ أن النبي داود (ع) اختار من سبط الكهنة والقُضاة مايتين وثمانية وثمانين كاهناً يسبّحون الله. كل إثني عشر منهم لساعة من أربع وعشرين من ساعات الليل والنهار ليبقى ذكر الله دائمًا .

إنَّ ثمرةَ الإيمان لا يُمكِن الوصول إليها مع الوقوف على أداءٍ شكليّ لطقوس العبادة، بل الدّخول بمقاصدِها إلى رياض التَّوحيد إذ يصيرُ بِهِ الحقُّ، كمَا جَاء في الحديثِ القدُسيّ "سَمْعَهُ الَّذِي يسمَعُ بِه، وبَصرَهُ الَّذِي يبصرُ به" .

والأركان المذكورة لها دلالات متعلّقة بباطن الإنسان، إذ لا يقف معناها على التكليف الظاهر والطهارة بمعنى النظافة الخارجية كالاغتسال بالماء أو الوضوء ضرورية، ولكن يجب أن تقترن بالطهارة الداخلية.

الصَّلاة: ﴿اسْتَعِينوا بِالصَّبْرِ والصّلاة﴾

الصلاة أَملاها الذكر الحكيم في العديد من الآيات الكريمة ليكون للمؤمنين بابَ صلةٍ بالله تَعَالَى، ومن معانيها الدُّعاء، أي الرَّغبة إلى الله تعالى فيما عندهُ منَ الخير، والابتهالُ إليه بالسّؤال. وأجملُ الصّلاة ما كان صادقًا مع قوله تعالى ﴿**ادْعُوا رَبَّكُم تَضَرُّعًا وخُفْيَة**﴾[1]، فالتَّضرُّع هو الإقبال بخشُوع وافتقار، والخُفيَة دليلُ الإخلاص والاحتراز من الرّياء.

والصَّلاةُ في الشرع تُعدُّ من أعظم الشعائر، وفي حقيقتِها صِلَةٌ بالأُنس الأعظم في حال صحَّتِها. (**إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي**)[2] ولكَي تحقَّقَ الغاية منها يلزمها الصّدق في الاستِشعار، وخالص النّيَّة في التَّوجُّه. فالاستشعار يفرضُ الاستكانة في حضرة الهيبةِ "كأنّك تراه"، وصفاء النّيَّة يوجِب حُضور القلب في مقاصِد الكلام.

---

[1] [الأعراف ٥٥]

[2] [سورة طه ١٤]

وقد أوضح الشيخ الفاضل (ر) وجوب مداومة الصلاة في كل يوم لأنها أمر رب العالمين، وهي موجَبة محّتمة على كل عاقل ديّان. مِمَن تأسّم بسمة الدّين من الرجال والنساء. وثوابها جزيل.

لقد نظَّم الإسلام الصلاة، وفرض وجوب الطهارة، وعلى الموحّد في صلاتِه أن يُقبل بكلّيَّته إلى خالقِه، بجواسّه الظّاهرة والباطِنة الّتي هي لطائف الرّوح الشّريفة، شاكرًا حامِدًا خاضِعًا مفتقِرًا متعوذاً بالله من شرّ الشيطان الرجيم، طالبًا من ذي الحول والقوَّةِ والقُدرة أن يلطف بهِ ويشمله بالرّحمة والنّعمة مع وجود اللطف والرّحمة والنّعَم في كلّ حال، وأوّلُها وجوده، ومعرفَة أصفيائِه، والتّصديق بدعوتِه. ثمَّ يبتَهل بقوَّة الحبّ والشَّوق إلى جمال الحقيقةِ أن ينوّرَ الله سُبحَانَهُ قَلبَهُ لإدرَاك الحقائِقْ وفق الطّاقة، وأن يقدّرَه بالهِمّةِ وحُسن السّعي على العمل الصّالح، وأن يعينَه في إقبالِه على موجبات الفضيلة، ويثبّته في اعتقاده السّليم، ويوفّقَه إلى ما يُرضِيه، ويقرّبه إلى الرّضوان، ويسدّدَه بالتّوفيق، ويحبّبه بالخَير وبأهله وبكلِّ ما يسهّل الصّلة به. وأن يهبه نعمة الرّضى في كلّ حال، ثمَّ

يستكينُ بنسائم الرّجاء من دون غفلةٍ عن الخشية من غدر النّفس، ليعاودَ الدّعاء طلبًا للاستجابةِ والقبول والصّفح والثّبات[1] .

وأما الصّلاةُ من الله، في القول عند ذِكر نبيٍّ كريم: صلّى الله عليه، فهي تعني الطّلب من ذي العزَّة والجلال أن يمدَّه بالتّأييد، ويصلَه بالرّحمة، كما جاء في الآية الشريفة **﴿هُوَ الّذِي يُصلِّي عليْكُم﴾**[2]، أي يَرحَم.

ولمَّا كانت الثّمرةُ المرتجاة من الصّلاةِ هي الصّلة بالحقّ قلبًا ووجدانًا، فإنّ الموحّدينَ أقاموا مجالسَ الذّكر لتكون زاهرةً في هذا المقام. كما قَالَ تَعَالَىَ: **﴿لا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ﴾**[3] فالذّكرُ هو حِفظُ الأوامر والنواهي والمفاتشةِ (أي الطّلب والبحث في التفسير والمعنى)، والثباتِ في الخير. ويدخُل في معناه أيضًا الطّاعة والشّكر والتّسبيح والقراءة، وهذه كلّها غايات في المجالس الزّاهرة، اي المضيئة بحُسن النوايا، وصفاء السّرائر، وهيبة الاستشعار. وحالُ الموحّدين

---

[1] أصدرت اللجنة الدينية في المجلس المذهبي كتيبًا خاصًا في موضوع الصلاة.
[2] [الأحزاب٤٣]
[3] [الاسراء ١١٠]

هنا كما جاء في الحديثِ الشّريف: "ما اجتَمَعَ قومٌ في بيتٍ من بيوتِ اللهِ يتلُونَ كتابَ اللهِ، ويتدارَسُونَهُ بينهُم. إلاّ نَزَلَتْ عليهم السَّكينةُ، وغَشيتْهمُ الرَّحْمَةُ، وحَفَّتْهُم الملائكةُ، وذكَرهُم اللهُ فيمن عنده". قَالَ تَعالَىَ: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾[1].

أورد السيد الأمير (ق) في معرض توضيح استشعار فعل الصلاة ما يلي: انه ذات يوم مرّ فقيه بحاتم الأصمّ، فقال له: يا حاتم، كيف تصلّي؟ قال: أقوم بالأمر، وأمشي بالسكينة، وأدخل بالنيّة، وأكبّر بالتعظيم، وأقرأ بالتوسّل، وأركع بالخشوع، وأسجد بالخضوع، وأسلّم بالنيّة، وأمثّل الجنة عن يميني، والنار عن شمالي، وأقول في نفسي: إن الله حاضر معي، وإنني لا أصلّي صلاة بعدها. قال: فالتفت الفقيه إلى أصحابه وقال: قوموا بنا نعيد صلاتنا، فما فينا من يصلّي.

---

[1] [هود ١١٤]

الصبر والصلاة:

ونظـرًا للأثـر العميـق المحمـود لِفعـل الصّـلاة في ذات الإنسـان، أوصت الآية الكريمة بضرورة الاستعانةِ بالصَّبر والصّلاة تحقيقًا للغاية الشّريفة في الرّوح البشريّة. فالصَّبر "خاصّـيّة الإنس"[1]، أي فضيلة إنسانيّة مُترتّبة عن إعمال العقل منعًا للنّفس من الانجرار خَلفَ نَوازِعِ الهـوَى والابـتِلاء بالعـادات المؤذيـة الرَّدِيَّـة. والصّـلاة هـي "وُصْـلة المعرِفـة"[2]، لأنّها تأخـذ الرّوح إلى رحـاب السّـكينة والاسـتقرار في فسحة الحِلم والاستشعار، الأمر الّذي يحقّقُ للنّفس رياضتَها في نور المعرفَة وإشراق المعاني الروحانيّة في القلب. لذا، فإنَّ اكتسابَ المرء لهاتَين الفضيلتَين (الصبر والصلاة)، والدّوام عليهما، من شأنهما أن يُكسِبا الإنسانَ مناعةً عزيزةً، وقوّةً معنوِيَّةً، يواجهُ بهما صخبَ الحياةِ المعاصرَة الّذي وطّنَ في نفسِه أسبابَ القلق والحزن والخوف منَ وطأةِ الزّمن. في هـذا المنحـى، فـإنَّ الصّـلاةَ الصّـادقة هـي واحـة رجـاء، وضوء أمل، وباعث طمأنينة للإنسان التّائق إلى الحقيقة.

---

[1] (الغزالي)
[2] (التّستري)

الزَّكاة: ﴿قد أفلحَ مَنْ زكَّاهَا﴾

أكَّدَ التُراثُ الإبراهيمي في الصُّحُف المنَزَلة على فريضة الزَكَاة وهي الأمر بالمعروف ومواساة الفُقَرَاء.

فالزّكاةُ بوجهَيْها هيَ رُكنٌ أساسيٌّ من أركَان الدّين الحَنيف. الوجهُ الأوّل هو قاعدةُ الشّرع المتعلّقة بحقّ الأخوَّة بما يجبُ في الأموال منَ الصَّدَقةِ والإنفاق في سبيلِ الله بنيَّةِ الخَير، والوجهُ الثّاني للزّكاةِ هوَ العملُ بطاعةِ الله تعالى، والتبرّؤ من كلّ معصيَة، اللّذان مِن شأنِهما أن يُزكّيا النَّفسَ ويطهّرَاها.

إنَّ الزّكاةَ إذاً هي من أعمال الخَير العِظام من حيث كَونها استجابةً لأمر الله تعالى في قوله ﴿**وَأَنفِقُوا مِن ما رزَقناكُم مِن قبْلِ أن يأتِيَ أحَدَكُمُ المَوْتُ**﴾[1]، ومِن أهمّ شروطِها كي تؤتي ثمرها أن تكونَ النيَّةُ معقودةً بالخَير استِشعارًا بأنَّ الرّزقَ هوَ منَ الله العزيز الكريم، وإحساسًا بالمشاركَةِ الطيّبَةِ للإنسان ذِي اليد مع أخِيهِ الإنسان ذِي العَوَز. وأن تحرّكَ المبادرةُ إليها النّفسَ لتكون ذات عَطاء وجُود

[1] [المنافقون ١٠]

وكَرَم، وما يعنيه ذلك في الذّات الإنسانيَّةِ من احترامٍ للقيَم، والتزامٍ بالفضيلةِ في ما يتجاوَز نزوعَ النّفسِ إلى الطّمَع وحبِّ المال واكتِنازه.

قيل إنَّ الزّكاةَ طُهْرَة، أي تُطَهّرُ صاحبَها من خبثِ البُخل المُهلِك، وأَجْمَلها حين يطويها الإسرارُ في عِلمِ الله تعالى، أي أن تكونَ بعيدةً ومنزَّهةً عن الميلِ إلى حبّ السّمعةِ، وعن الوقوع في آفةِ الرِّياء والمحاباةِ لأسباب نفعيَّة. والصّدَقة، كما ورد في العديدِ من الآياتِ البيِّنات، تُطهّرُ أصحابَها "عَن شُحّ نفُوسِهم، وتُزكّيهم بِهَا بألَّا يتكاثَرُوا بأمْوَالِهم؛ فيَرَوْا عظِيمَ مِنَّةِ الله عَليهم بوجْدَان التَّجرُّد منها"[1].

اتّسعت دائرةُ أعمَال الزّكاة في المسلكِ التّوحيديّ لتشمل واجب الإحاطة والرّعاية والحِفظ للأخوة من حيث إنّ الموحّدين نَسَبٌ رُوحيّ وفقًا لما ورد في المأثور: "أبوهُم النّور وأمّهُم الرّحْمَة".

والبركة في أعمال البرّ أن يُبادِر إليها المرءُ قبل المساءَلة، فمن يُكرِم اخوانه في حَاجَاتِهم لوَجه الله أكرَمَهُ الله يومَ الحساب.

[1] (القشيري)

الصَّوْم

قال تَعَالَى في كِتَابِهِ العزيز: ﴿يا أيُّها الّذينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ كَمَا كُتِبَ على الَّذِينَ مِنْ قَبلِكُم لَعَلَّكم تتَّقون﴾[1]. فالصَّومُ وما يعنِيه من الإمسَاك عنِ الطَّعام وَالشَّرابِ وَالجماع وما يجري مجرى ذلك في شهرٍ مَعلوم، هو فرضٌ فِي الشَّرعِ عرفته الديانات السماوية قبل الإسلام.

وذَكَر أهلُ الفضلِ من الأوائلِ بأنَّ "الصَّومَ عَلى ضَربَين: صَومٌ ظَاهر، وهوَ الإمسَاكُ عَن المُفطِرات مَصحُوباً بالنّيَّة، وصومٌ بَاطِن، وهوَ صَوْنُ القَلب عنِ الآفَات، ثمَّ صَون الرُّوح عَن المُساكَنات، ثم صَونُ السّرّ عن الملاحظات"[2]، أي الإقدام على العمَلِ مع اعتقادِ تقوى الله بأن يكونَ ذلك بَابًا إلى استشعار حُضُور الله تعالى، والعودَة برهافةِ الإحساس اللطيف، الّذي يولِّدُه الجُوعُ وضبطُ الجوارح، إلى رحابِ الإنسانيَّة بالتّعاطفِ مع الآخَر على قاعدةِ الخَير وتحقيق الفضيلة.

---

[1] [البقرة ١٨٣]
[2] (القشيري)

لقد رسَّخَ التّوحيدُ مفهومَ الصَّوم بمعنَيَيْه، معتبِرًا أنّ عدمَ امتثال الصَّوم بمعناه الشّامل لا يؤدّي إلى غرَضِه الّذي هو ثمرتُه المبتغاة. وبهذا المعنى، فإنَّ الموحِّدين يؤمنُون بأنَّ لكلِّ جارحةٍ صومها الخاص. فصومُ العين غضّ الطَّرف، وكفّ النّظر عمّا يشوّشُ بصيرة القلب ويدفع بالنّفس إلى رغباتٍ خارجةٍ عن آداب المسلك. وصومُ الأُذْن بوجوب امتناعها عن سماع اللغو والكذب والغِيبة والنّميمة وما شابه. وصوْمُ اللّسان بالتزامه الصِّدق والكلام النابِج عن إعمَال العقل والحِلم والأدَب. وصوْمُ البطن عن الحرامِ والتّخمة، وباقي الجوارح على النّهج ذاته.

فالصيام هو أن تقول في قلبك "لا" للشهوات أو الميل إليها، وتمتثل بإرادتك الإلتزام بذلك، و"لا" لمخالفة الأوامر، فمن تمّ له ذلك طوعًا لا قصرًا، كان الصيام بالنسبة إليه تصرُّفًا طوعيًا. وهي الدرجة الأعلى في سلم الارتقاء.

إن معرفة أمر الصّيام ومُفطِراته لجهة قواعد الإلتزام بالأصول، واجبة على كل موحد.

ولو كان الإنسان قد أفطر بسبب أو عذر، فإن المجاهرة بالإفطار في شهر رمضان في المجتمع الإسلامي من المخالفات الخارجة عن حدّ الشّرع والأدب، لأن ذلك يؤذي شعور الصائمين، فالترابط الاجتماعي، والتواصل الإنساني، يوجب احترام الآخر، وعن الرسول(ص) يقول: "كل أمّتي معافى إلا المجاهرين". (*)

لقد أكد السيد الأمير (ق) في معرض تعليمه المتعلّق بتهذيب جارحة البطن، ما يُمكِن اعتباره النّظرة الشّاملة لمسلك الطّعام وآدابه بتأكيد التمسّك بقاعدة الحلال، والابتعاد عن الحرام في اكتساب الرّزق. ثمّ شرح أهميّة الاعتدال على الدوام، واتخذ منهجًا بما يشبه الصيام الدائم. ويميل كبارُ الموحّدين إلى اتّخاذه نهجًا يدأبون على اتّباعه، ليس فقط فيما يتعلّق بالطعام، بل فيما يُشبه حالة إحرام يلتزمون بها اختيارا، خصوصًا في أيام الجمعة بدءًا من عصر يوم الخميس وليلة الجمعة، على مدار أسابيع السنة وفي أيام وليالي العُشر الأول من شهر ذي الحجّة السابقة ليوم الأضحى المبارَك، وفي اليوم الأول من شهر محرّم، إذ يصير

(*) أصدرت اللجنة الدينية في المجلس المذهبي كتيبًا خاصًا في الصوم وأحكامِهِ.

الصّوم فيها امتناعًا عن كلِّ محرَّم، والاكتفاء بالقوتِ عونًا للنّفس على القيام بواجباتِها في الذِّكر، وإقامة الصّلاة، والاستئناس بمآثِر السّلف الصّالح بما يقوّي النّفوس على نوازعها، ويغذّي القلب، ويُحيي طبائع الخير بأنوار المعاني الروحيّة الشّريفة، ولطائف استشعار الفضل في المجالس الزاهرة بتلاوة كتاب الله العزيز.

دلائل الديانة

لقد وضع الشيوخُ الأفاضلُ ثوابت دالَّة على المعالم الواضحة لسلوك الطَّريق السَّديد للمعرفة والدِّيانة، منها:

١- **نفي الحجبة والغفلة في الأحوال:** أي أن يكونَ مستشعرًا وجود الله "كأنَّه يراه"، واعيا أنَّه أقرب إليه من حبل الوريد، منشغلاً بحبه.

٢- **مراعاة الأسرار في التّوحيد:** سلامة السريرة، بحيث تكون أقوالُه مطابقة للأفعال، وتكون الأفعالُ مقرونةً بالوفاء والإخلاص.

٣- **ترك العدول إلى طريق آخر:** أي الابتعاد عن التَّصرُّفات المذمومة، والعقائد المخالفة للأصول.

٤- **القيام بشروط العهود:** وهو التزامٌ بأدب السلوك، وحُسن الالتزام بأدب الدين ظاهرًا وباطنًا.

٥- **مفارقة العادات:** أي أن يتخلَّى الإنسانُ عن كلِّ العادات التي لا تتناسب مع الأخلاق الحميدة.

٦- **التزام الأمر بالمعروف والنَّهي عن المُنكَر:** وهو قاعدة أساسيَّة في المسلك.

٧- **الاستقامة في الأقوال بحفظ اللسان:** أي التبرّؤ من الكذب والغِيبة (قالَ تَعَالَى: ولا يغْتَب بَعْضَكُم بعضًا، أي يُظهِر في الغيبة بما يَسُؤُهُ) والنّميمة (نقل الحديث في ما يُفسد بين الناس) واللغو والكلام القبيح، فإن تكلّم، فيكون كلامه مستنيرًا بنور العقل الطائع.

٨- **ترك البدعة والفواحش والمنكرات في الأفعال:** البدعة هي ما ليس لها سند في أصول الدّين، والفاحشة هي الذّنب القبيح، والمنكر هو كلّ ما قبّحه الشّرعُ وحرّمهُ وكرّههُ.

٩- **نفي التواني والفترة في الأعمال:** أي أن يكونَ المرءُ مبادرًا إلى تحصيل الفضيلة بهمَّةٍ واجتهاد وإقبال بعيدًا عن التكاسُل والبلادة والخمول والتّسويف.

١٠- **الوفاء بالوعود:** يعرِّفُ المأثورُ التّوحيديُّ الوفاءَ بأنّه "الإخلاص بالنّطق، واستغراق السّرائر بالصّدق"، فالموحِّدُ إذا وعَد، التزم بوعده في سريرة القلب وأخلصَ لما قالهُ بلسانِه، فلا يُخلِف، ولا يُماطِل، ولا يُؤَوِّل كلامه في غير قصد النيَّة الواضحة عبر منطوق الفم. وتعتبَر مسألة الوفاء بالوعود والعهود على الوجه الأكمل فعلا من أفعال التّقوى الموجبة كما ورد في الآية الكريمة **﴿بَلَى مَن أَوْفَى بِعَهدِهِ واتَّقَى فإنَّ اللهَ يُحبُّ المتَّقِين﴾**[١].

١١- **حسن التوكّل:** وهو ثبوت القلب بالثقة بالله وفي ما عند الله، وأجمله أن يكون راسخاً في النّية والمعرفة.

[١] [آل عمران ٧٦]

سُنَنْ الدّيانة

مذهب الموحِّدين نظامٌ اجتماعيٌّ متكامل، ويتجلّى ذلك في الحياة الاجتماعية عبر سُنَن وأوامر أهمّها:

التّمييز بين الحلال والحرام

ورد في حديثٍ شَريفٍ رواهُ سلمانُ الفارسيّ(ر) عن رسول الله(ص): "الحلالُ ما أحلَّ الله في كتابِه، والحرامُ ما حرَّمَ الله في كتابه" . . . وأمر المحلّلات والمحرّمات هو أمرٌ جليلٌ دقيقٌ متعلّقٌ بالأمر والنَّهي الّذي لا يصحُّ مسلكٌ دونهما باعتبارهما أساسًا أصيلا في الأُصول التّوحيديَّة، بهما يتبيّن الطّيّبُ من النّفوس من خبيثها كما قال عزَّ وجل ﴿**يُحلّل لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ ويُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ**﴾[1] فالطّيّبات ما يقرِّبُ إلى الله، والخبائث هي ما يُباعد عنه.

إنَّ علماءَ التّوحيد الثّقات نبَّهوا إلى أنَّ إهمالَ البحث عمَّا هوَ حلال وعمّا هو حرامٌ هو أمرٌ مانعٌ للمرء من استبصار الحقّ، وقاطعٌ

[1] [الأعراف ١٥٧].

للنّفس عن منافذ الدّخول إلى معاني الخير ومقاصد الكلمة الطّيّبة، لأنَّ من شأن الوقوع في ارتكاب الحرام من كافّة وجوهه أن يُقسّيَ القلب، ويَطمِسَ نور البصيرة، ويُفقد المرء تلك السّمة الجوهريَّة التي يجبُ ألاَّ يخلو منها قلبُ موحّد أبدًا، وهي: القُدرة على التّمييز.

إنَّ انعدامَ التّمييز يوقعُ المرء في التباسات المفاهيم، فيختلطُ في خاطره ما هو حقّ بما هو باطل، وتتراكمُ المركّبات في الذّهن الّذي لا يعودُ قادرًا حينذاك على رؤية "عِلم البسيط" الّذي هو التّوحيد، ومعنى "البسيط" هنا هو الحقّ الصّراح الّذي لا يُدانيه شِركٌ أو عدم.

إنَّ ذكر الله سُبحانَه وتَعَالَى قبل المباشرة بأي فعل هو بداية المسلك في موضوع الحلال، ويعتمد الثّقات البدء بإسم الله والذكر الحكيم قبل الطعام وبعد الطعام، قبل العمل وبعد العمل(*)، قبل الخروج وبعد الإياب، قبل النوم وبعد الاستيقاظ.

والمحرَّمات غير مقتصرةٍ على "الأرزاق" كما أشارَ إلى ذلك الشيخُ الفاضل(ر)، بل يندرجُ تحتها أيضاً "اعتقادات القلوب، وأفعال الجوارح". فإنَّ

(*) مع مراعاة كل ما أوجبه شرع الله في ذبح الإنعام.

كلَّ فعلٍ ترتكبُه الجوارِحُ في غير ما خُلقت له، أي في غير مقاصِد الخير والحلال، يكون فعلاً حرامًا يؤذي النّفس، وما أكثر مخالفات هذه الأيام.

الزّواج على سُنَّةِ الله في خَلقِه

الأسرةُ هي "حَجَرُ الأساس الأخلاقيّ للحياة البشريَّة إذا ما حقّقتْ غايتَها تحت حُكم العقل"، لذلك، اقتضتِ الحكمةُ الإلهيَّةُ أن يكونَ للنّفوس أزواجها لتسكنَ إليها، وتشعر معها بالمودَّة والرّحمة كما جاء في الذّكر الحكيم.

نبَّهتِ الأصولُ التَّوحيديَّةُ إلى وجوب تحقيق شروطٍ لازمة ومقدّمات أساسيَّة لا بدَّ منها حتمًا من أجل بلوغ الغاية الشَّريفة من تكوين الأُسرة، وهي شروط ومقدّمات يلتزمُ بها المرءُ في تحقيق خطوة الزَّواج استنادًا إلى وعيٍ ناضج قائم على وحدة القلب والعقل معًا.

إن وحدة القلب والعقل لازمة عند أبناء طائفة الموحّدين المعروفين بتُراثِهم الدّيني والتاريخي الأثيل، وهو ما يتمثَّل بعراقة جذورهم العربيَّة الأصيلة المُحافِظة على تقاليدها في الزَّواج وحفظ الأنساب[1].

---

[1] ورد في كتاب "قبيلة تميم العربية بين الجاهلية والإسلام"، عبد الجبّار العبيدي، ان الإصهار من تميم الى قريش كان لا يتُم إلاّ من رؤوس بني تميم، لا من عامتهم.

يتوجّب شروط لازمة لصحّة الزواج أهمّها: حسن انتخاب الزوجة، عدم زواج القاصر، الرضى والقبول المتبادلين، عدم وجود مانع صحي، إجراء العقد وفق الأصول أمام المراجع الروحيّة، الإشهار بين الأهل والأقارب. ومن الواجبات المفروضة مشاركة الجماعة في أفراح بعضهم البعض، مع وجوب احترام مظاهر الادب والاحتشام.

لقد اعتمد الموحدون الدروز الزوجة الواحدة عملاً بقوله تعالى: ﴿**فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً**﴾ (١)، ثم قال عزَّ وجل ﴿**وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ**﴾ (٢). كما انهم يحرّمون عودة المطلقة، ولا يصبح الطلاق نهائياً ونافذاً إلاّ بإعلانه والتوقيع عليه امام القاضي بحضور شاهدين، حيث يصدر حكماً به.

لقد استقلَّ الموحّدون بشؤونهم المذهبية، وتولّوا ولاية الأحكام القضائية لأبنائهم منذ أكثر من ألف عام، وتميّزوا في ذلك بتطبيق المفهوم الرّوحي، مِمَّا شكَّل تُراثًا يتوجّب على الموحِّدين فهمهُ

(١) [النساء ٣].
(٢) [النساء ١٢٩].

والمُحافظة عليه عبر التقيُّد بمضامينه. واستمرَّ هذا النهج مع الإمارة التنوخية، ثم المعنية، والشهابية، وبذلك حافظ الموحّدون على استقلالهم المذهبي إبان الحُكم العثماني رغم صدور مجلَة الأحكام العدلية، حتى إن القاضي من الموحِّدين كان قاضي الإمارة على اختلاف طوائفها في فترات تاريخية عديدة[1]. واستمرَّ القضاء مستقلاً في عهد المتصرفية، حتى صدور قانون الأحوال الشخصية لطائفة الموحدين الدروز عام ١٩٤٨.

هذه النظرة الدينيَّة لم تَمُسّ في حالٍ من الأحوال النظرة الوطنية القائمة على التفاعُل بالأرض، بمعنى الارتباط الوجداني، وعلى المُشاركة التاريخية والمستقبلية مع اخوانهم في الأمَّة، لأن المفهوم عند الموحّدين أن الدِّين قائم على علاقة الفرد بالله من جهة، وعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان في المجتمع من جهة ثانية.

---

[1] حليم تقي الدين – قضاء الموحدين الدروز.

المحافظة على الأحساب والأنساب

تتبدَّى أهميَّةُ النَّسبِ عندَ الموحّدين إن تصفَّح المرءُ كُتُبَ تاريخهم، وتمعَّن في ما خلّفه من أثر في مجتمعهم في مختلف الحقول. ولا عجب، فهم من القبائل العربية الكريمة التي ندر أن اعتزّت أمّة بأنسابها مثلهم، حتى أنهم نظَّموا نسب الخيول التي اقتنوها لمقاصد شتّى. وتترتب على حفظ النسب آثار اجتماعية لا يمكن التهوين من شأنها كالميراث، والزواج، والنّسبة العائلية إذا اقترنت بالخلال الحميدة والسجَايا الرفيعة، والأخلاق العالية، والصفات الممتازة، التي بها يتحقَّق معنى الحَسَبْ والنسب.

ولا يجبُ أن يُفهمَ النَّسب هنا بالمعنى العائلي (البيولوجيّ) رغم أهميّته، بل بالمعنى التكوينيّ الّذي ألّفَ المعرفة البشريَّة، أي جذَّر انسجامها الكلّيّ في ما اعتقدته من رؤية شاملة لكلّ العصور. وهذا الانسجام، في معناه الحقيقيّ، يحمل نواةَ النقيض لمفاهيم العنصريَّة والعِرقيَّة والفئوَّية والانكماشيّة لصالح شموليَّة المعرفة ووحدة الوجود الإنسانيّ.

لذلك، يتشبَّثُ الموحّدون بهويَّتهم من حيث هي هويَّة إنسانيَّة معرفيَّة منحازة للخير بالمضاددة مع الشّرور، موافقة لأهل الحق بالطبيعة والأجسام ومنقادة للعدل ومناقضةٌ لكلّ ظلم، ومستنيرة بفسحة العقل بعيدًا عن كلّ توثّن. ومن الصّعوبة بمكان أن يجدَ الأبناء المناخ العائلي الملائم، والمنافذ الحقيقيَّة لثقافة وإرث هذه الهويَّة في واقع الزَّواج المختَلَط.

تحريم الخلوة بامرأة غير مَحرَم

لقد ترسَّخت في الأعراف التَّوحيديَّة، نتيجة الحرص العاقل على صيانة الكيان العائليّ وتثبيت قوّة مناعته في وجه ما يشوب الخضمّ الاجتماعي العام من عادات طارئة من شأنها أن تخلخِل عوامل الألفة وأواصر المحبَّة، قاعدة تجنّب الاختلاء بالمرأة دون وجود مَحرَم، قطعًا لدابِر أهواء النّفس، ومنعًا لأسباب الشّبهة من النفاذ إلى السّمعة، واتّقاء لله من الانزلاق إلى ما لا تُحمَد عُقباه، حيث أنَّ مجمَل ما يتأَّتى من قبائح في هذا المجال يتأَّتى بدءًا من مخالفة هذه القاعدة.

وإذا تأمَّل المرءُ في معنى هذا "الاجتناب" بروّية وتجرُّد وإنصاف، لتبيَّن له أنَّ في هذا التحذير حفظاً لمكانة المرأة في المجتمع، واحترامًا لحضورها الّذي لا يزيده الحياءُ والحشمة والتأدُّب إلا اتّزانا وشرفًا وجمالا أخلاقيّا لا يضاهيه أيّ جمال آخَر.

الحياء

الحياء هو توسُّط بين طرفين مذمومين: بين طرف الزيادة (الإفراط) الذي يُسمَّى خجَلاً وطرف النقصان (التفريط) الذي يُسَّمى وقاحة أو خلاعة، وهذا الأخير مقدّمة كلّ شرّ لأنَّ الوقاحة هي جرأة على المهانة والإقدام على الأمور القبيحة. ومن أقوال الحكماء: إن الحياء نظام الإيمان فإذا انحلّ النظام ذهب ما فيه. وقد جُعِل الحياء بعض الإيمان لأن الإيمان ينقسم الى شطرين: الائتمار بما أمر الله به، والانتهاء عمَّا نهى الله عنه، فإذا حصل الانتهاء بالحياء كان بعض الإيمان. وقال أحدهم إن الحياء يجنّب صاحبه ركوب المعاصي. ومن المؤّكد ان مَنْ عَدِمَ الحياءَ مِن خَلقَ الله، عَدِمَ الحَياء من الله.

إنه من الواجب التزام الحياء وترك كشفه عمومًا وخاصةً النساء، اللواتي يتوجّب عليهنّ الترّفع عن الانزلاق إلى الهوى مثل تقليد "الموضة الدارجة" دون حسبان أثر ذلك على صورتها التي يجب ان تتّسم بالحياء والنُبل، فاللباس الرسمي هو لباس الموحدات خارج منازلهن والجمال اللائق هو أولى أن يكون في أناقة الرّوح، ورقيِّ النفس.

تحريمُ الكبيرتين

الزِّنا

قال تعالى في الذّكر الحكيم ﴿**وَلاَ تقرَبُوا الزِّنا إنَّه كانَ فاحِشةً وسَاءَ سبيلا**﴾[1]، فالزِّنا محرَّمٌ بالكلِّيَة، وهوَ منَ "العظائم الكبار" في الذّنوبِ لأنَّ مضارّه لا تقتصرُ فقط على الابتلاء بظلمة القلب وقلّة الدِّين وذهاب الورع، بل تتعدّاها إلى الحقل الاجتماعي لما فيه من تضييع الأنساب، وانتهاك المحارم، وسوء السمعة واستحضار فتنة الغواية المُحبِطةِ لِكلّ تفكير رزين، ويشمل الزِنا العلاقة غير الشرعيّة

[1] [الإسراء ٣٢]

بين رجلٍ وامرأة، كما يشمل ما يُسمَّى ويُشرَّع اليوم مع الأسف من شواذ المثْلَيْن وَزوَاجهما[*].

تتنوَّعُ مُسبّبات ارتكاب هذا الفِعل الشّنيع المؤذي رُوحيّا، وأهمُّها من الناحيةِ الأولى عدم التزام أَدب الجوارح، وأوّلها في هذا المجال العين التي يسبق "زناها" الزّنا الجسديّ، وذلك عند عدم صونها وحمايتها من النّظرات "الخائنة" كما وصفها الكتابُ الكريم في قوله تعالى ﴿**خَائنة الأعيُن**﴾[1]. كذلك إهمالُ الأفكار عن قصدِها المنزَّه باسترسالها في خواطر السُّوء وطلب الرّغبة والشَّهوات. ومنَ المسبّبات أيضًا إهمال أدب الطعام والشَّراب بتناول الحرام منه، أو المغالاةِ في الفضُول إلى حدّ التّخمة، وهذان أمران من شأنهما أن يُثقلا حركة الجسم والفكر، ويحجبا لطافة الرّوح والبصيرة، ويدفعا دفعًا إلى طلب الشّهوة، أما من الناحية الثانية فهو الشذوذ بكل معنى الكلمة.

إنَّ الموحّد الّذي يستشعر دقائق نظام التّوحيد، تراه متشبّثًا بما يعصِمهُ من ارتكاب هذا الخطأ الشّنيع، لأنَّ فيه هدم الأساس الأخلاقيّ الذي يُبْنى عليه المسلك، ويُسبّبُ الأذى العميق للطافة

(*) كل ما يُخالف الطبيعة ومنها الاستمناء باليد يقع تحت غضب الله عز وجل.
(1) [غافر ١٩].

النّفس وسجاياها الجوهريَّة. مع الإشارة إلى انَّ باب التوبة الصادق مفتوحٌ. وان رحمة الله واسعة، فهو الغفور الرحيم.

القتـل

النَّفسُ الفاضلةُ العاقلة غايةُ الوُجُود من حيث هي المنفعلة بالواسطةُ الموصلةُ إلى غاية الغايات التي هي معرفة الباري سُبْحَانَهُ وفق الوسع الإنسانيّ. ومهما تعثّرت في سبيلها إلى تحقيق شرفها الأمثل، فإنَّ الله تعالى حرَّم قتلها في الذّكر الحكيم **﴿ولا تَقتُلوا النَّفسَ الّتي حرَّمَ اللهُ إلاَّ بالحقّ﴾**[1]، بل استعظم الأمرَ حتّى عُدَّ كبيرة من أعظم الكبائر **﴿مَن قتلَ نفسًا بغير نفسٍ أو فسَادٍ فِي الأرضِ فكأنّما قتلَ النّاسَ جميعًا﴾**[2].

وجاء في سِفر الأمثال للنبيّ سليمان الحكيم (ع) إنَّ من الأمور التي يبغضها الرَّبُّ "الأيدي التي تذرفُ دماءَ الأبرياء". واعتبرهُ الرَّسولُ(ص) من المُوبقات المُهلكات في قوله "اجتنبوا المُوبقات"، وأعظمها الشّرك بالله، والنَّفس الّتي حرَّم الله قتلها إلا بالحقّ.

---

(1) [الإسراء ٣٣].

(2) [المائدة ٣٢].

واعتبر العلماءُ الموحّدون الثّقات القتلَ كبيرةً من الكبائر العظام (ومنه الانتحار) وهو بمثابة الكفر بنعمةِ الله التي أغدقها على العالَمين، وشِركٌ به تعالى، فهو الّذي ﴿يُحيي ويُميت﴾[1] جلّ جلاله.

إنَّ غايةَ الموحّدِ اكتشافُ معنى الحياة وهي النّعمة الإلهيَّة التي تمكّنه من تحقيق الكمال المختصّ به إنْ هو استنارَ بمضامين الحكمة العالية المختزَنة في نظام وجود الكون ذاته. لذلك، فإنّ نعمةَ الحياةَ باتت حقّاً مقدَّسًا لكلّ كائنٍ عاقل، وبالتالي، يكون القتلُ عملا مُشينا له آثاره المؤذية والوخيمة في عمق الرّوح التي يجبُ أن تتجوهر بالعدل واحترام الحياة، دون أن ينفي ذلك حقَّ الدّفاع عن النَّفس وأسباب الحياة عينها، ومنها ما اعتبره الموحّدون استكمالا للمروءةِ والشّرف أي حقّ الدّفاع عن "الأرض والعِرض" بمعناه الحقيقي بما يمثّلهُ من حرّية الكيان الوجودي الاجتماعيّ، وقيَم الدّين والحُرُمات والأخلاق والكرامة.

---

[1] [الدخان ٨].

الفصل الثالث

الصِّدْق

الصّدقُ في التَّوحيد هو وحدة الحال في عمَل اللسان والقلب والنّـيَّـة وكَافَّة الجوارح، والتبرّؤ من المخادعة والرياء والتدليس، وما من سبيل للوصول إلى حقيقة التّوحيد دون المدخل الصّدق إليه، وأوّله مسلكيًّا القول بالحقّ، وترك الحرام، وانطباق باطن الإنسان مع ظاهره، والوفاء بالعمل، وصحّة القصد حتى يصير الصدق في الواقع صلة بما هي الشهامة وما هو الشرف.

إنَّ أصلَ الصّدق الاستقامة التي هي "تهذيبُ الأسرار" كما جاء في المأثور، أي حفظ عهود الأمانة التّوحيديَّة، واليقينُ الثابت بالعدل الإلهيّ. وإذا استقام المرءُ في مسلكِه، استشعر حينئذٍ الصّلة بالحقّ، بمعنى وجود هَيبة الحقيقة في قلبه، فيتنبَّه إلى مخاطر الانجراف في اللَّهو والوقوع في غواية المعصية التي يدعوه إليها الكثيرُ من ظواهر الحياة الحديثة.

والتَّربيةُ على الصدق، الَّذي هو في محلِّ مفترَضٍ توحيديٍّ جوهريٍّ، تتوجَّبُ منذ نعومة الأظفار بجعله عادةً محبوبةً، وواجبًا مكرَّمًا، ليصير خصلةً شريفة، وخُلُقًا يمتازُ به ذوو السِّيرة الحميدة والمسلك الواعد. أمَّا اللسان الَّذي اعتاد المراوغة واستحسان الخداع، يكونُ آفةً كبرى للنَّفس التي تصير أوَّل ضحاياه باعتيادها الكذب المودي بها إلى اغترابٍ خطيرٍ عن حقيقتها الجوهريَّة.

وبالاجمال، فإنَّ الصِّدقَ هو التَّوحيدُ لأنَّه براءةٌ من الكذب، وطهارةٌ لملتزمه في ظاهره وباطنه، ونقاوةٌ يحفظُ بها صفاء السَّريرة ومرآة الضَّمير، فيستنيرُ الدَّربُ أمامه، لأنَّه بالصِّدق يُنير بصيرتَهُ لانعكاس أنوار الحقائق فوق صفحتها، ويهتدي إلى مآثر أهل الفضل، فيقوى بمحبَّتهم والاستفادة من معارفهم وحِكمهم، ويوفَّق إلى سواء السَّبيل.

الصِّدق صِلَة

إنّ زكاةَ النّفس بالصّدق، وصِلتَها الدائمة به، يمنحُها قوّة التّمييز بين الطيّب من الأعمال وخبائثها . كذلك، فإنّ هذه الصّلة الحميدة تبيِّنُ لها بوضوح مساوئ الكذب وعواقبه الوخيمة المتعلّقة بتشويه صورة النّفس وانطماس بصيرتها .

ولمّا كانت النَّفسُ بقواها اللطيفة الكامنة فيها، هي بمثابة أمانة أوصى الله تعالى بحفظها وصونها عن الضَّلال كقوله تعالى ﴿**عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ**﴾[1]، فقد وجب لذلك أن تذكرَ عهدَ الطّاعة كما أرشدها إليه عبر العصور الأنبياء والمُرسَلون. إنَّ امتثال هذا المعنى لا يُمكنُ أن يصبحَ خصلةً شريفةً مطَهّرةً للنَّفس إلاَّ بانتهاج الصّدق في كلّ حركاتها . إذّاك، تتولَّدُ فيها الصّلةُ بنهج الحقّ، وتُضاءُ بصيرتُها في مسالك الحياة، فلا تجنحُ إلى الإفراط أو التَّفريط، بل تُدركُ شرفَ الاعتدال والاتّزان الرُّوحيّ، فتوفَّق في مساعيها إلى كلِّ خير.

---

[1] [المائدة ١٠٥].

لذلك، اعتبر المأثور التّوحيدي أنَّ الصّدقَ هو "فرضٌ لازم"، لأنَّ الصّلةَ الصَّادقةَ بالأمانة الغالية هي بمثابة مناعةٍ روحيَّةٍ من شأنها أن تحمي النَّفس الخيّرة من مهاوي الانخداع والافتتان بالرَّغبات العارضَة والخارجة عن حدّ الصَّواب. والنَّفسُ التي حالفها التّوفيقُ في هذا السَّبيل الأصل، تُدرِكُ القيمة الجوهريَّة للخير، ولثمرته المحقَّقة في الرُّوح، إذ تجدُ أنَّ الكثيرَ من المغريات الدنيويَّة هي في الواقع عبَثٌ لا طائل منه، وأنَّ السموّ عن العديدِ من أغراض الرَّغبة الطائشة هو مرقى نفيس لأنَّه يهب الإنسانَ معاني الكرامة والشرف من دون زيفٍ أو التباس.

وفي مرقاه الشّامل في الرّوح، يصيرُ الصّدقُ تصديقًا بالله المُنَزَّه الموجود، وبرُسُلِه، وبدعوته، وبالآخِرة، وبأنّ الخيرَ هو الحقّ وثوابه الرِّضى، وبأنّ الشّرّ هو الباطل وعقابُه غضب الله تعالى. والتّصديقُ هو الإيمانُ الذي لا يكتملُ إلاّ بالتزام الصّدق في جميع الأفعال والأقوال والأحوال. وبه طهارة القلب، وصفاء النيّة، والوقوف مع النّفس في السّبيل القويم تحقيقا لأشرف الغايات.

التَّصديق بوجود الباري المُنزَّه (سبحانَه وتَعَالى)

يُعلِّمُ التّوحيدُ أنَّ من صِفاتِ المُوجِد إظهار الموجودات، ومن صفات الصَّانع إظهار المصنوعات، ومِن صفاتِ القادر إظهار القدرة، ومن صفات العالِم إظهار العِلم، ومِن صفات الحكيم إظهار الحِكمة، وكلُّها دَلالةٌ على وُجُود الله سبحانه وتعالى وعَظمتِه وفَضلِه وعَدلِه .

إنَّ الإيمانَ بالله تَعَالىَ هوَ في حقيقتِه تصديقٌ بوجودِه المنزَّه عن كل صِفة. والإيمان الصَّادق لا يعرفُ التجزئة فهو توحيدٌ يأنسه المرءُ من حيث قدرته وقوَّته في مسعاه، وهو أن يغذّي قلبَه من معاني هذا الوجود مثل التي دلّ عليها في **"أسمائـِه الحسنى"** ومنها: الرَّحمن الرَّحيم: "أي ذو الرَّحمة الرّاحم لعبادِه، "الفائض بالرَّحمة التي لا مُنتهى لها، والتي وسعت كلّ شَيء، فهو صاحبُ الرَّحمة العامَّة للخَلق جميعًا، لا غِنى لأيّ كائنٍ عنها" . والعزيز: "أي الَّذي لهُ جَميع معاني العزَّة، كما قال سبحانه ﴿**إنَّ العِزَّةَ لله جميعًا**﴾[1]، أي الَّذي لهُ العزَّة بجَميع مَعانيها وهي القوَّة، والامتناع من حيث أنَّهُ الغنيُّ بذاته فلا

[1] [يونس ٦٥].

يحتاجُ إلى أحد، ثمَّ القَهْر والغلَبة لجميع الكَائنَات. ومِن آثار الإيمان بهَذا الاسْمِ أن يكونَ ذلُّ العَبْد لله وَحدَه، لا يلتجئ إلاَّ إليه، ولا يحتمي إلاَّ بجمَاه، ولا يلوذُ إلاَّ بجنابه، ولا يطلب عزَّه إلاَّ منه ﴿مَن كانَ يريدُ العِزَّةَ فلِلَّه العزَّةُ جميعًا﴾"[1]. والسَّلام: "أي مَن منه يُستَمَدُّ السَّلام، وإليه يعودُ السَّلام، وبه يسُودُ السّلام، ومعنى قوله ﴿يدعُو إلى دَار السَّلام﴾ أي يأمر عبادَهُ أن يعملوا صالحًا من أجل دار السَّلام وهي الجنَّة. والحيّ: "فيه إثباتُ الحيَاة صفةً لله، وهيَ حياةٌ كاملةٌ ليسَت مسبُوقَة بعدم، ولا يلحقُها زوالٌ وفنَاء، ولا يعتَريها نقصٌ وعيْبٌ جلَّ وتقدَّس عن ذلك". والغفَّار: "الَّذي أظهر الجميل وستَر القبيح، والذّنوب من جُملة القبائح التي ستَرها بإسبال السّتر عليها في الدّنيا، والتَّجاوز عن عقوبتها في الآخِرة".

إنَّ المُوحّدَ مصدّقٌ بالوجُود الإلهيّ المنزَّه تصديقُه للحياة التي تعطي قلبَه الخفقان. وهوَ بمعرفتِه معاني الفضل الرَّبانيّ لا يكونُ حظّه منها مجرَّد "سماع الألفاظ وتفسير اللغة"[2]، بل يرقى إلى رتبة

---

[1] [فاطر ١٠].
[2] (الغزالي).

اعتقادها بقلبه، وكشف حقائقها المسلكيَّة، والشَّوق إلى الاتّصاف بما أمكنَ من تلك الصّفات، "ليقربَ بها منَ الحقّ في حرصٍ على التَّحلّي بها، والتَّخلُّق بمحاسنِها" وفق الطاقة الإنسانيَّة، تُعينُه على ذلك المعارف النَّورانيَّة التي أتَى بها الرُّسُل الكرام، والمسالك الشَّريفة المرتبطة بالعمل الصَّالِح.

التصديق بالكون المعقول

تجلَّت قدرةُ الباري الخالق عزَّ وجلّ في خَلقِه الكون وإيجاده، بإرادته المُعبَّر عنها بقوله ﴿**كُنْ فَيَكُونُ**﴾[1]. التي توجبُ حقيقة أن الكونَ معقولٌ بتلك الإرادة لضبط الوجود بحكمةٍ بالغة. والإنسان عاجزٌ عن التفكير في ذاتِ الله تعالى فكان لا بدَّ من واسطةٍ تُرشدُه وتُعينُه وتُسدّد خطواته في سعيه إلى **معرفةِ الدّين** المُوصِلة إلى طاعةِ الله الرّحمن الرّحيم.

---

[1] [سورة يس ٨٢].

لقد كانَ من كرم الله تعالى أن مَنَّ على العِباد بالواسطةِ التي من شأنها أن تدلَّهُم عليه. ولم يَخْلُ عصرٌ من العصُور دون الدّعوةِ إليه. فحمل أنبياؤه الكرام الرّسالة إلى غاياتها. وأقاموا حجَّةَ التّوحيد على كلِ الخَلق. فمن أناب فلنفسِه، ومن غفل فعليها.

وفي الكتاب الكريم حثٌّ على التفكيرِ وتأمُّل صورة هذه القدرة التي أمامنا، والانتباه إلى روعة النّظام الفريد العظيم الذي يتحكَّم في حركتها الثابتة، ومثال ذلك قوله عزّ وجلّ ﴿**إنَّ في خَلقِ السَّمَوات وَالأرض وَاخْتِلافِ اللَّيْل والنَّهار لآياتٍ لأُولى الألباب**﴾[1]، أي "تدبَّرُوا أيُّها النَّاس، واعْتبرُوا، ففي مَا أنشَأتُه فخلقتُه من السَّمَوات وَالأرض لمعاشِكُم وأقْواتكُم وَأرزاقكُم، وفي مَا عقَّبتُ بينهُ منَ اللَّيل وَالنَّهار، فجعلتُهُمَا يَختلِفان ويعتقِبان علَيكُم، تَصرَّفُونَ في هَذا لِمَعاشِكم، وتَسكنُون في هَذا رَاحةً لأجْسَادِكُم"[2]، فمَن كان منكُم ذا لُبّ وعَقل، يعتَبر ويستشعِر ويُدركُ بقوَّة بصيرتِه لطافة صنْع الحكيم ودقَّة أسرار هذا النّظام البديع الرّاسخ عبر الأعوام والدّهور،

---

[1] [آل عمران ١٩٠].
[2] (الطبري).

ممّا يعني أن **حركةَ الكون معقولةٌ بإرادة الله**، وما من وسيلةٍ لإدراك شيءٍ من حقائقها **إلا بالعقل**. لذلك، تواترت الإشارةُ في الكتابِ الكريم إلى التعقّل والتفكّر والتّدبّر مثل قوله تعالى ﴿**أفلَمْ يَسِيرُوا فِي الأرضِ فَتكُونَ لَهُم قُلوبٌ يَعقِلُونَ بِهَآ أو آذانٌ يسمعُونَ بهَا فإنَّها لا تَعمَى الأبصارُ ولكِن تعمَى القلُوبُ الّتي في الصّدور**﴾[1] .

إنَّ كلَّ الرِّسَالات السَّماوِيَّة الَّتي أدَّاها الرُّسُل الكرام، حملتْ في تَعالِيمها الدعوةَ إلى استنارةَ العقل البشريّ، والقلبِ الإنسانيّ، بمضَامِين التَّوحِيد المستند أساسًا إلى الإيمان الصّادق بوحدة خالق الكون، وعظمة قدرته، ومُعجِز تدبِيره الّذي كان من حِكمته خَلْق الإنسان القادر، **بنعمةِ العقل**، على إدراك معنى وجوده بقدر ما يستطيعه بالإخلاص وصحَّة العقيدة وصفاء النيَّة من تحقيق تلك الغاية النبيلة التي وُجد أصلاً من أجلها .

---

[1] [الحجّ ٤٦].

الصدق هو الالتزام بِحُدُود الله

الحدُّ هو الحاجزُ بينَ الشيْئَيْن، وهو مصطلحٌ تمّ استخدامُه في الوجه الشّرعيّ للتعريف بما شرّعهُ الله تعالى لعبادِه من الأحكام حدودًا لهُم لكونها أمورًا حاجزة بين الحقّ والباطل، ولكونِها مانِعة من مخالفتها والتخطّي عنها[1] . وإن حدود الله بالمعنى الشرعيّ هم الأنبياء الصالحون، وقيل إنّ حدودَ الله شروطُه. فهيَ إذاً - بالمعنى المسلكيّ - الأَشياء التي بيّن تحريمَها وتحليلَها، وأَمَرَ أَن لا يُتعدّى شيءٌ منها فيُتجاوَز إلى غير ما أَمَرَ فيها أَو نَهى عنه منها، ومنعَ من مخالفتها .

لقد اتّخذ مفهومُ الحدّ عند الموحّدين أبعادًا إضافيّة في المنحى الفكريّ المرتبط بالإبداع الكونيّ عن القدرة الإلهيّة المعبَّر عنه بالآية الكريمة ﴿إِنَّ في ذلك لآياتٍ لِقومٍ يعقلون﴾[2] . إنّ الوجود الحسّي الذي نعاينُه بالحواس الظاهرة الخمس هو وجودٌ نسبيّ قياسًا إلى الوحدة الخالصة، المنزَّهَة عن الازدواج التي هي الحقّ تَعَالَى، وإبداعُهُ منها هو أمرٌ يُردّ إلى معجزات القدرة، والله على كلّ شيءٍ قدير .

---

(1) (روح البيان).
(2) [الرعد ٤].

إنّ الإنسان العاقل، أي الذي وُهبَ العقل القادر على إدراكِ حقائق الأمور، هو في هذا الحقل النسبيّ، ولا يمكنهُ أن يعقلَ نورَ الحقّ المطلق إلاّ عبر الحدّ، أي الواسطة التي قدّرها الله تعالى لتكون رحمةً للناس، وقريبة منهم، حيث إنه بالاعتصام بها، والتوسّل بواسطتها، يُفتَحُ بابُ الخير، ويوفَّق الإنسانُ الموحّد في وعيه لغايات وجوده. ولا يمكن للمُريد أن يسلكَ السبيلَ السويّ، أو يُجرِيَ فكرَهُ في نهجٍ قويم إلاّ بلزُوم الحدّ، بل بفهم الحدّ واسطة لفعل الإبداع.

ولكي يقع أمرُ المطلق في حيّز الإدراك الإنساني، كان العقلُ رحمةً من حيث هو الحدّ الذي به يعقلُ العبدُ ما أراده الرّحمن الرّحيم أن يعقل. كذلك الحدّ الذي به تتّحد إدراكات العقل لتصيرَ صورًا نفسانيّة بفعل الإرادة، وحدّ الكلمة التي "سبقت من ربّك" وصولاً إلى حدّ الفعل السابق للوجود، فإلى ما يتلوه من إحداث الوجود عينه "كن فيكون". تلك وسائط خمس تضبط الحدّ المعقول بين الوحدة المطلقة والكون النسبي. وبها يصير الإنسان مهيّأً لتقبّل "كلمة الله العليا" وهي كلمة التّوحيد، وبالتالي لتلقّي الرّسالات السّماويّة عبر

الرّسُل الكرام. ويمكن للإنسان أن يتأمّل معاني الآية الكريمة التي تشير إلى تلك المدارج ببلاغةٍ فائقة العمق ﴿**إنَّما أمرُهُ إذا أرادَ شيئًا أن يقولَ لهُ كُنْ فيكُون**﴾[1].

الصدق وحفظ الإخوان

لسانُ المرء إذا عُوِّدَ الاستقامة منذ سنّ اليفاع، أكسبَ النَّفسَ حصانةً خُلُقيَّة، وصفات معنويّة تُسهم إسهامًا أساسيًّا في تكوين الشَّخصيَّة الإنسانيَّة السَّويَّة، ولا تتبدَّى ديانةُ المرء الموحّد على حقيقتها إلا بأعماله، فالأخلاقُ، كما يقولُ أحد الحُكَمَاء، هي الأفعالُ وليست الأقوال. ولذلك ارتفع مفهوم حفظ الأُخوَّة بالمعنى الديني والإنساني إلى مصاف العقائد لارتباطها الوثيق بزكاة النّفس، وطهارتها، وارتقائها في معارج التّوحيد. كذلك الأعمالُ، هي ما بيّنتهُ وقائعُ الحال للمرءِ وسط بيئته، واحتكاكه السلوكيّ مع ناسها، وليس فقط في انشغاله الذّاتي بتهذيب باطنه، وتنقية نيّته، وثباته اليقينيّ في تحصيل الخير.

[1] [يس ٨٢]

إنَّ البُعدَ الاجتماعيّ في المسلك هو بابٌ للتّطهُّر والفلاح الّذي يتعدَّى حدودَ المصلحة الفرديَّة باتّجاه الصّالح العام. من هنا تُفهَم الإشارةُ التّوحيديَّةُ المتكرّرةُ إلى مفهوم "المعشَر" التي وضعتهُ في رتبةِ فريضةٍ ساميةٍ هي "حِفظ" الأخ لأخيه بكلّ معاني وجُوه الإنسانيَّة أكانت رُوحيَّة أم مادّيَّة. هذا "الحِفظُ" هوَ سبيلٌ إلى زكاةِ النَّفس، أي ارتقائها وطهارتها وصلاحها، فالموحّدُ يجسّدُ بكلّ سكناته في ذاته، وحركاته وسط مَعشره (الجماعة والمجتمَع)، الصُّورة الجميلة الحقيقيَّة لنظام التَّوحيد من حيث هو نظامٌ اجتماعيّ متكامل، وظيفتُه تحقيق الغاية الأمثل والأرفع لوجود الإنسان في هذا العالم.

وثمّة وصايا جوهريَّة في معاني الحفظ كلّها تهدفُ إلى تسديد خطى العمل في هذا الباب من حيث هو سبيلٌ مثمر في طريق الفلاح، ودلالة سنيّة على التزام نهج الصّلاح. منها الحثّ على المبادرة إلى القيام بالواجب في المناسبات الحياتيّة سواء في الفرح أو في الترّح، دون الاقتصار على أدب اللياقات وحسب، بل على تعميق المعنى الإنساني في العلاقة الأخويَّة من بذل التعاطف والإيثار وحسن الفهم وقبول المعذرة وتلبية الحاجة والمناصرة في الحقّ والذبّ عنهُم

بدفع الجهل بالعِلم، والفقر بالمال، والغفلة بالذّكر، والخطأ بالنَّصيحة، والضّعف بالاستنهاض، وكلّ هذا مع حفظ المحبَّة، واستدراك العيْب بالسّترة والتّنبيه، وتغليب حُسن الظنّ ما لم يقع الصَّدع في حدٍّ من الأصول، وتقبيح الغِيبة والنَّميمة والغمز واللمز، وهو التحدُّث عن أحدِهِم بِذِكر العيوب ونيَّة الطَّعن بالسُمعَة. والموحّد المستنير يذكر الفضل، ويجلّ المنزلة الرّوحيّة، ويحترم العرف الأثيل احترامًا يغذّي به روحَه وقلبهُ وسعيَه في مكابدة امتثال المثال الحقّ وفق استطاعته، خصوصًا مع إخوانه كما قال ﴿**علَى سرُر متقابلين**﴾[1].

التَّصديق بعدالة الوجود. (النظام الأخلاقي المتكامل)

يصعُب على الإنسان أن يرى العدلَ في الوجود بمعناه الشَّامِل ما لم يكن محقّقًا شيئًا من العدالة في ذاته ومتذوّقًا لها في حقيقتها.

هكذا، كلَّما اتَّسع ميدانُ المعرفة في النَّفس الصَّادقة، رسخ فيها التَّصديقُ بعدالة الوجود الشّاملة، وتحقَّقت أنَّ مجملَ المفاسد العاصفة في وجه الأرض هي، ويا للأسف، وليدة الجموح البشريّ

[1] [الحجر ٤٧].

المضادّ نحو السَّيطرة والتَّحكُّم وارتكاب الشُّرور من أجل إخضاع الطَّبيعة ونظامها للمصالح والأهواء. وهو جموحٌ أدَّى في الغالب إلى الصِّراعات والحروب والتَّطوُّر الهائل في صناعة آلات القتل والتَّدمير وهدم الحضارة، بالرّغم من استفادة الهامش الصّناعي لتحقيق إنجازات كثيرة مفيدة للجنس البشريّ في شتَّى المجالات العمليَّة.

إنَّ استشعار العدالة من شأنه أن يوقفَ المرءَ على عمق الأزمة الأخلاقيَّة في العالم الحديث، إذ ليس المشكلة في تطوُّر العِلم الطبيعيّ في هذا السّياق، وإنَّما في التَّحكُم بإنجازاته خارج معايير الأخلاق والقِيَم الثابتة التي كانت في أصل بناء كلّ حضارةٍ جديرةٍ باسمها، وما التَّوحيد من هذا المنظور إلا التَّصديق بالغاية الأخلاقيَّةِ التي وحدها تحفظُ العدلَ لأنَّها المرآة الصافية لصورة الحكمة في هذا الوجود.

الفصل الرابع

الأمـانة

مقدمة

الأمانة في جوهر معناهَا هي كلمة التوحيد .

وَعَدَ اللهُ تَعَالَى حافظي الأمانات والعهد بإرث الفردوس إذ قَالَ عزَّ وجلّ، ﴿ **وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ** ﴾[1]، وإن أنصف الإنسان العاقل من نفسه لوجد أنه كلما وهبه إياه الله جلَّ جلاله هو في الحقيقة أمانة نفيسة يتوجب المحافظة عليها، وتأدية حقوقها وفقاً لما خلقت له. الروح أمانة جوهرية، والجسد والرزق والولد كلها أمانات عزيزة، إن أدى مقاصدها الحق كانت للمرء نعمة، وإن قصّر وأهمل وخالف كانت عليه نقمة.

والإنسانُ إذا استشعرَ معنى وجُوده، والنّعم التي منَّ اللهُ تعالى بها عليه روحيَّة ومادّيَةً، وأمْعنَ في الغايات الحكيمةِ التي تتحرّكُ

---

[1] [المؤمنون ٨]

باتّجاهها الحياة، لأدْرَكَ إدراكَ اليقين أنّـهُ مُؤتَمَنٌ على أُمُورٍ جليلة ليس أقلّها النَّفس والجسد والمال والولد وما يرتبطُ بها من مسؤوليَّاتٍ، وما يترتَّبُ على كلٍّ منها من واجبات، أي إلزامها الحدود، وصوْنها من كلِّ ما يسيءُ إلى وظائفها المخلوقة لها من أجل الخَير، فالإساءة إلى هذه الأمانةِ بالجهل والعبَث أمرٌ وخيم لأنَّه ثمرة الشُّرور والابتعادِ عن قواعد الأدَب والدِّين.

أمانة النّفس (الروح)

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾[1]

إنَّ النَّفسَ هي "كمالٌ أوَّل للجسم الطَّبيعيّ" الَّذي هو بمثابةِ آلـةٍ لها كمَا قَال الحكيمُ القَّديم. ويَنبغي على الإنسانِ العاقِل أن يُحسِنَ استِخدَام الآلَة لتؤدّي غرضَها في تحقيقِ الغاية السَّاميَة التي وُجدَت من أجلها أصلاً وهي العبادة والتوحيد. قال تَعَالَى: **﴿ لا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ﴾**[2]

[1] [الاسراء ٨٥].
[2] [الانعام ١٥٨].

والتَّوحيدُ هو أن يكونَ الإنسانُ واحِدًا في الخَير بِكلِّ ما وهبهُ الله تعالى إيّاه، أي في روحِه وعقلِه وقلبِه ونيّـتِه، وفي جوارحه وكلّ جسمِه، وبما ملكت يداه. وهذا أمرٌ جليل لا يمكنُ تحقيقه صدقًا مع ترك النّفس في الهوى، والجسد في إفراط الحاجة، والفِكر في لُجَّةِ الشَّكّ والبدعة.

فالنّفسَ ذات سجايا مُتضاددة، (النور والظلمة فيها متساويان)، فهي تقبل الجهل كما تقبل العِلم، فإن لم يحكمها العقلُ بمقتضى الحقّ جنحت إلى الضياع. لأن الشر لا يأتيها إلاَّ من قِبَل ذاتِها. والعقلُ الإنسانيّ بحاجةٍ إلى نور المعرفة واكتساب سبُل الرّشد. لذلك، فالموحِّدُ يستشعرُ افتقارَهُ إلى النُّصْح والهداية.

تقضي الأمانةُ هنا أن يلزمَ المرءُ نيَّةَ الخَير المعقودةَ على واجب الثَّبات في تهذيب النَّفس من شوائب الانحدار إلى الخُلُق المذمُوم، ولا ميزَةَ لأحد على أحد إلاّ بالعِلم والعَمَل، لأنّه في هذا الالتزامِ الشَّريف تعرف النفسُ طريقَها إلى الارتقاء صوْب المعنى الإنسانيِّ الكامن فيها كمون الجوهر في باطن حقيقتها.

ولأنَّ الظُلمَة في النفس هي عدو الإنسان، يتوجَّبُ على المرءِ أن يعلمَ أنَّ الإهمال، واستسهالَ المعصيةِ، والتَّسويفَ في استدراك الأمر، كلّها أمورٌ تؤدّي إلى نسيان الحقّ، والغفلة عنه، بل ورؤيته وفق الأهواء رؤيةً مشوّهةً خاطئةً، وهذا يؤدّي حتمًا إلى فساد النَّفس لأنـَّها إذَّاكَ تصيرُ عَرَضًا مُستباحًا للشَّهوات، ومحلاً مشوَّشًا تعصفُ به النّوازعُ إلى التّجاوز والارتكابات، وهذا يُطمِسُ بصيرتَها، ويقوّي طبعَها الجانِح إلى الأنانية وما تستتبعُه من حبّ الدُنيا وتملُّكِ اللحظة العابرة دون أيّ حسبانٍ لمحدوديَّة الزَّمن والعواقبِ الوخيمة لترْكِ النَّفس فريسةً سهلةً له.

ويجب على كل من يريد نيل الفضائل، أن لا يتغافل عن نفسه، ولا يهملها ساعة واحدة في قهر الشهوات الفانية، فلا تُذبح النفس إلا بسيوف المخالفة، لأن تراكم الخطايا على النفس، يجعلها نفسًا مريضة، تحتاج إلى علاج، فيتأخر تقدّمها نحو الأصلح والأفضل، والعبد، كما قيل، مُطالب بثلاث: في الغيبة والحضور، والسترة والظهور، نفسٌ يمضيه في غير محل الرضى، ولحظٌ يلحظُهُ في غير اعتبار في تصاريف القضا، ونُطقٌ ينطق به إلاّ في سبيل الرضى.

من صفات الموحّد، مما ذكره السيد الأمير (ق)، أن يصرف نفسه عن الشهوات والمحرّمات، وأن يعرفَ اللهَ تعَالَى حَقَّ مَعْرِفَتِهِ، ويُوحِدَهُ ويُنزهَهُ بِمِقْدَارِ رتبَتِهِ. ويعرف أَبوَابَ رَحْمَتِهِ. وخزنة دَعْوَتِهِ. المُوْصِلِيْنَ إلَى جَنَّتِهِ. ويلجَأَ أَمْرَهُ إلَيهم بحَسَب طَاقَتِهِ. ويَمْتَثِل مَرَاسِيْمَهُمْ عَلَى قَدْرِ قوتِهِ، فإذا عرف ذلك وَجَبَ عليه أن يَعْرف أن اللهَ سُبحَانه وتَعالى لا يفارقه طرفة عين، قال تَعَالَى: ﴿ **مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إلا هُوَ رَابِعُهُمْ ولا خَمْسَةٍ إلا هُوَ سَادِسُهُمْ ولا أَدْنَىٰ مِنْ ذَٰلِكَ ولا أَكْثَرَ إلَّا هُوَ مَعَهُمْ** ﴾[1]. ومن المعروف أن قاعدة معرفة النفس، أي يعرفها بالعبودية لله وليس لغيره.

قال أحد الحكماء: "إن بين العبد والمعبود خطوتين لا غير، إحْدَاهُمَا أَنَّهُ يَسْتَعِيْنُ بنورِ اللهِ وَعَوْنِهِ. وَيَمْحَقُ ظُلْمَتَهُ وَشَهْوَتَهُ وَغَضَبَهُ. فَإذَا تجَرَّدَتِ النَّفس من ذلِكَ صَارتْ نيِّرَة جَوْهَرِيَّة. صَافِيَةً نقيَّةً عَالِمَةً مُضِيَّةً. ثُمَّ تخطو الخُطوَةَ الثَّانية وهي اتصالها (بالواسطة) بِبَارِيْهَا واتّحادُها بأنوارِ عَظَمَتِهِ. وكَمَالُ الْتِذاذِهَا بجَمَالِهِ وَجَلالِهِ. وَهذا هُوَ الدِّينُ الصَّحِيْحُ".

---

[1] [المجادلة ٥٨].

أمانة الجَسَد (الجسد قميص الروح)

يُكرَّمُ الجسمُ البشريّ في المأثور التَّوحِيدِيّ بوَصْفِه "أفضَل مَا تَراهُ العَينُ"، فهو الكثيف الفاني، الذي ارتبط باللطيف، الذي هو الروح الخالدة، التي به فقط تُعاين الوجود، حيث لا يوجد لطيف بلا كثيف، فهو الصّنعة "الفاضِلَة" التي خَلَقَها الباري تَعالى **﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾**[1]، أي "في أعدلِ خلقٍ وأحسَنِ صورةٍ"[2]، "مُستَوي القَامة، مُتناسِب الأعضَاء، حَسَن الشَّكل، كمَا قَال **﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾**[3]. غيرَ أنَّ الصُّورةَ الإنسانيَّةَ متَّصفةٌ بمَا هو أرْقى وألْطَف منَ الكَثِيف الجسمَاني من وُجُوه "الحَيَاة والعِلم وَالإرادَة والقُدرَة فضلاً عن السَّمْع وَالبَصَر وَالكَلام الَّتي هِيَ الصُّورَة الحَقيقيَّة الإلَهيَّة المُشَار إلَيْها بقول النبيّ الكريم "خَلقَ اللهُ آدَم عَلَى صُورَتِه"، فَالإنسانُ مَظهَر الجَمَال والكَمَال"[4].

---

(1) [التين ٤].
(2) [الطبري].
(3) [غافر ٦٤].
(4) [روح البيان]

طبعًا، هـذه صُورةُ المِثال الإنسـانيّ الّتي يجبُ على الـمَرءِ أن يسعَى لتحقيقِها في سِياق الحيَاة. وباختِصار شَدِيد الأهميَّةِ لِكلِّ ذِي لُبّ رَجيح، فإنَّ اللطِيفَ يجبُ أن يكونَ حَاكِمًا لِلكَثِيف، لأنَّ الأوَّلَ جَوْهريٌّ خَالِد، والثَّاني مُضْمَحِلٌّ بَائِد، كما قال أحد الحكماء: "هذا القميص الشحماني مادةٌ لا حياة فيها ولا شعور إلاّ ما تبعثه ذات الإنسان فيها من حيوية وإحساس". وقيل إن "الجسم مع النفس كالقلم مع الكاتب".

وأوَّلُ واجباتِ حِفظ هَذه الأَمَانةِ هي حُسْنُ استِعمَال الجَوارح "فِي مَا خُلِقَت لَـهُ" كمَا نبَّـهَ على ذلك السّـيّد الأميرُ (ق). فالجوارحُ كلُّها أمَانَات "أُمِرتْ فِي كُلِّ وَاحدَةٍ منهَا بِأَمْر".

فَـأَمَانةُ العَينِ الغضُّ عنِ المَحَارم، والنَّظرُ بِالاعتِبار، لكي يكون الاعتبار سببًا للوصول الى الخالق عزَّ وجلّ ومشاهدته، كما قال تَعَالَى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[1].

وأَمَانةُ السَّمْعِ صِيانتُهُ عنِ اللغْو والرَّفَث (الفُحْشُ منَ القَوْل)، وإحْضَارُهُ مَجالِس الذِّكْر، والسمع يوصل الى القلب مباشرة كما يُقال

[1] [القيامة ٢٢-٢٣].

الأذن تعشق قبل العين أحيانًا ، والمستمع شريك القائل، وتربيته الإنصات دائمًا الى الصدق والحق.

وأَمَانةُ اللّسَان اجْتِنَاب الغِيبَة والبُهتَان (الكَذِب المُفتَرى)، ومُدَاومَةُ الذّكْر، قيل عن لقمان الحكيم: ان مولاه دعاه يومًا واراد ان يمتحنه، فقال له اذبح لي شاه واتني بأطيب مضغتين منها، فذبح شاة وأتاه بالقلب واللسان، ثم قال له اذبح لي شاة أخرى واتني بأخبث مضغتين منها، فذبح شاة وأتاه بالقلب واللسان، فساله عن ذلك، فقال انهما أطيب شيءٍ إذا طابا، وأخبث شيءٍ إذا خبثا .

وقد حذّر السَّيّد الأميرُ (ق) من خطورة فعل اللسان حين وصفه بأَّنه "أبو الكبائر" ما لم يُحفَظ من اقتراف الكذب والعديد من الآفات الخُلُقيَّة من صنوف الغِيبة والنَّميمة والهذر. وأولى باللسان الصّادق المتلفّظ بلطائف الحِكَم أن يُصان ويُراعى من كلّ ما لا يليق بالأدب الإنسانيّ الأرفع. إنّ هذا الأمر يتطلَّب أوّلاً، وكما سبق، تنقية القلب والنيّة من شوائب الغفلة والخفَّة، لأنَّ القلبَ كما قال

الشّيخ الفاضل (ر) "هـو الأصلُ والمركزُ والجوارح كلّها تبعٌ له، وإذا صلُح المتبوع صلُح التّابع" .

وأَمَانَةُ الرِّجْل المَشْيُ إلَى الطَّاعَات، والتَّبَاعُد عَن المَعَاصِي، ومشاركة الاخوان في واجباتهم، والسعي للعمل والرزق، ورياضة الجسد .

وَأَمَانَةُ الفَم (البَطن) أن لا يَتنَاوَل بِهِ إلاَّ حَلالاً، ويحفظه عن الحرام والشبهَة، وأن الاطعمة أدوية، والمقصود منها أن يقوى الإنسان بها على عبادة الله، ومن الواجب بالنسبة للغذاء، أن يبدأ بذكر الله قبل تناول الطعام كما أشرنا سابقًا، وأن الإنسان وفقًا لجالينوس الحكيم: "لا يمرض إذا اعتنى بأن لا يعرض له سوء هضم الباتّة"، ومن المبادئ الأساسية التي أشار إليها الحُكمَاء التي نأمل ان تكون موضوع دراسة دقيقة مستقبلاً، أن يحذر المرء اختلاف أنواع الأطعمة، ويحذر التخمة، لأن الطعام يفسد هضمه من جهات مختلفة، من الكيفية والكمية وسوء التدبير، كذلك من عوامل سوء

الهضم إدخال الطعام على الطعام، وعدم تقديم الرياضة، وشرب المياه أثناء تناول الطعام[1] .

وأَمَانـةُ اليَـد أن لاَ يـمُدّهَا إلى حَـرَام، ولاَ يـُمْسِكها عَـنِ الـمَعرُوف، ومن الواجب تعلّم صناعة للاستعانة على قيام حال

---

[1] النظام الصحي للطعام

ونظرًا للأهمية في هذا الموضوع، فقد تناولت نظريات متعدِّدَة النظام الصحي للطعام نذكر أهمها استناداً الى: Dr. Herbert Shelton "Food Combining Made Easy"

١- تجنّب خلط النشويات مع البروتين.
  أ- الخضار وحدها يمكن خلطها إمّا مع البروتين أو مع النشويات.
  ب- البروتين يؤكل بعد ٤ ساعات من تناول النشويات.
  ج- النشويات تؤكل بعد ٥ ساعات من تناول البروتين.
٢- تجنّب شرب أي سائل حتى الماء مع الأكل او بعده لأكثر من ساعتين، وعند تطبيق النظام بدقّة قد لا نحتاج إلى المياه قبل أربع ساعات.
٣- تجنّب خلط النشويات مع الحامض أو البندورة.
٤- تجنّب تناول أية فاكهة أو حلويات إلا بعد ٤ ساعات من تناول أي طعام.
٥- تجنّب أكل حبوب يابسة مثل الحمص بطحينة او الفول المدمس او العدس المطبوخ كالمجدرة، إلا بعد تنبيت هذه الحبوب وطبخها لمدة قصيرة جداً على البخار فقط.
٦- تجنّب أكل أية معجنات وخصوصاً الخبز المعجون بالخميرة لأنه ينقلب الى كحول وغازات سامة في حال تخمرها او تعفنها.
٧- توخِّى الحذر من تناول الحليب ومشتقاته والسكر وكل ما هو مصنَّع من السكر كالحلويات والمربيات والسكاكر.
٨- النوم المبكِّر له حسنات جمّة، والسَّهر الطويل يسبِّب العديد من ا لاضطرابات الجسديّة والنفسيّة.

البروتينات: البروتينات تتألف من اللحوم جميعها ومن الإنتاج الحيواني بما فيه السمك والدجاج والطير والبيض والحليب وجميع مشتقاته، والمكسرات كالفستق الحلبي والصنوبر، والجوز، واللوز، والسمسم، والحبوب اليابسة كالعدس والحمص والفول والفاصوليا والزيتون.

النشويات: تتألف من الأرز، البطاطا، الطحين والمعجنات، الكستناء، الشمندر، الذرة، الأرضي شوكي، القرع والجزر.

الحبوب اليابسة: هي مزيج من النشويات والبروتينات ولذلك تسبب النفحة اي التخمر وسوء الهضم لكل من يتناولها، وبقدر ما هي نافعة عندما تكون خضراء وطازجة او منبتة بقدر ما تصبح مضرة عند يباسها ولا يجوز تناولها إلاّ بعد تنبيتها.

تصنيف الفاكهة: تجنّب تناول الفاكهة الحامضة مع الفاكهة الحلوة، بل يجوز تناول الفاكهة النصف حامضة مع غيرها.

١- بطيخ وشمام، تؤكل منفردة.
٢- فاكهة حلوة: تمر، موز، خرما، عنب حلو، تين، وجميع الفاكهة المجففة.

فاكهة حامضة: جميع أنواع الليمون، أناناس، الفريز، الكرز، رمان، إكدنيا، وكيوي، لا يجوز تناولها مع الفاكهة الحلوة.

المرء، ويجب تربيتُها على عدم الإيذاء لأحد، أو خيانة وديعة أو أمانة. وأنَّ ما يكتبه الإنسانُ بيدِه، او يسطره بقلمه، هو بالسوِّيَة ذاتها مع كلّ أفعال جوارحه وبواطنه. لذلك قيل بحقّ إنّ "القلمَ احدُ اللسانَين" ويجبُ حفظه عمّا يجبُ حفظ اللسان عنه حتمًا. وقد قال في المعنى أحد الزُهَّاد:

وما من كاتب إلا سيُبلى ويُبقي الدّهرُ ما كتبت يداهُ

فلا تكتب بيمينك غير شيء يسُرّك في القيامة أن تراهُ

وأمانة الفرْج: يجب على المرء أن يحفظه من الزنا بالكليّة، لأن الشرائع جميعها حرّمته تحريمًا عظيماً، وقد أشرنا إلى تحريم الزنا، ومن الواجب في تربية الفرْج حفظ العين، وحفظ القلب عن الفكر، وحفظ البطن عن الشهوات والشبع.

أ- الطهارة والستر

إذا استعمل الإنسان جوارحه في ما خلقها الله عزّ وجلّ، توجب عليه تنظيف هذا الجسم بالغسل من سائر الأنجاس في الوضوء والطهارة لأن السُترة والطهارة من مشروعات الدين. ولا

سماح ولا رخصة لكل من تأسم بسمة الدين أن يهمل ذلك من كافة الأخوان والسالكين.

عندما تُفارق الروح الجسد[1]

من المفترضات الواجبة في وداع الميت مشاركة الجماعة أهل الفقيد، ويتوجّب الالتزام بفضيلة الصبر حيث قال تَعَالىَ: "واصبر لحكم ربّك فإنك بأعيننا"، والمؤمن الصابر هو الذي يرضى بقضاء الله، كذلك من واجب احترام الأصول وآداب اللّياقة في حضور الموت، التزام قاعدة الهدوء دون ندب أو نواح، والتزام ارتداء المنديل الأبيض للنساء عمومًا، ولكننا نُشاهد في هذه الأيام الكثير من الناس الذين إذا حلّ بِهِم مُصاب الموت بوفاة عزيزٍ، يتصرفون بأفعال تتنافى مع الصبر والرضى بقضائِهِ تَعَالىَ، وإكرام الفقيد الخشوع في معنى الموت.[2]

---

[1] أصدرت اللجنة الدينية في المجلس المذهبي كتاباً في مراسم الجنازة عند الموحدين الدروز.

[2] يُفَضَّل شرعًا لدى الموحّدين الدروز التعجيل في دفن الميت، ويتوجب الغسل والتكفين، الرجال للرجال، والنساء للنساء. وفي ما يتعلّق بالصلاة على الجثمان، فإنّها تؤدَّى بأربع تكبيرات وذلك بذكر الشهادتين (لا إله إلا الله محمد رسول الله) في التكبيرة الأولى، والصلاة على النبي(ص) في الثانية، والدُعاء للمؤمنين في الثالثة، والدُعاء للميت بالمغفرة في الرابعة، ثم ينقل الجثمان الى المقبرة، ويمنع مس الموتى أو إحراقهم.

أمانة المال

عطفاً وإضافةً على ما ذُكر في موضوع الزكاة.

فالمال عند الإنسان وديعة من الله تَعَالَىَ، وتأدية الودائع الى من أودعها هو صرفها في واجبها، وبذلها في محلها، فإن تَمَّ المرء واجبه فقد أدى الأمانَة.

إنَّ الأُصُول النّظرِّيَة المعرفيَّة لدى الموحّدين مرتبطةٌ بالسّلوك الاجتماعيّ في حقل الواقع بحُكم الضَّرُورة الإيمانيَّة، فلا إيمان يُعتدُّ به من دون مسالك عمليَّة.

جديرٌ في هذا المعنى التوقُّف عند مفهوم المال عند الموحّدين لارتباطه الوثيق بالتطبيق العمليّ لمعنى العدالةِ في أرض الواقع. ثمَّة واجبات مفروضَة تجاه اكتساب المَال واستخدامه، فأوَّل ما يجبُ المحافظة عليه حتمًا هو اكتسابُه من حلال. فإذا وقع بين يديه، فهو محاسَبٌ عليه في اعتبارَين، هما: معناه ووظيفته.

أمّا لجهة معانيه، فعليه أن لا يجعله غايةً في ذاته ليقوى به في جاه الدّنيا ومكانته فيها، أو لخوفٍ من عوز، بل يكون في عينه محل وديعة من الله سبحانه وتعالى، فلا يتعلّق به قلبُه، ولا يجمح طمعُه في اكتنازه خوفًا من الفضول الّذي اعتبرَه السيّدُ الأميرُ (ق) مهلكة من المهالك.

وأمّا لجهةِ وظائفه، فإذا أنعم الله باليُسر، وبعد الاكتفاء منه لضرورات الحياة والإعالة، فمن الواجب بذلُه في الصَّدَقة، وأعمال البرّ على اخوانِه، واكتساب ملكة الإنصاف فيه، وعدم صرفِهِ في الحرام. والصَّدقةُ عملٌ مثمرٌ من أعمال الخير، مأخوذٌ معناها من الصّدق كما قال ﴿صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾[1]. وهي فرضٌ لازمٌ على كلِّ ذي استطاعةٍ فيه. والموحّدون مأمورون ببِرّ الضّعفاء، وهذا زرعٌ في أرض بالغة الخصوبة لأنَّ ثمرَها من كرم الله وثوابه، "فالعمل الصالح مع الاخوان يُثمِرُ خيرًا، تنتفع به النفس ثوابًا في عاجِل الدُنيا وآجِل الآخِرَة".

وتكرّسُ الأعرافُ التّوحيديَّةُ المعنى الفسيح للفريضة الرّبانيَّة المعروفة بـ"صلة الرَّحم" من حيث هي مقاربة الرِّقّة والعطفِ

[1] [الأحزاب ٢٣].

والرّأفةِ، ليس فقط بذوي القربى، بل أيضًا بكلِّ ذي صلةٍ بنور الإيمان، وبنعمةِ الحضور الإنسانيِّ المستنير. كذلك يحقّقُ الموحّدون، في مفهومهم المسلكي لمادّة المال، معنى الاعتدال والتكافل الاجتماعي الّذي به تستقيمُ النّفوس، حيث أنه من واجبهم الدّينيّ والأخلاقيّ الالتزام بقاعدة "لا إسراف ولا تقتير ولا تبذير"، بل "صرف المال في ما ينبغي وعلى من ينبغي في الوقت الذّي ينبغي"، في ضوء تحقيق العدالة في المجتمع بشكل عام.

ويوضحُ السيّد الأميرُ (ق) بشكل قاطع أنّ التزامَ "الإنصاف"، أي سلوك نهج العدالة في استخدام المال وفقا للتعاليم الشّريفة، من شأنه تحقيق العدل في المجتمع.

ويُستفاد من السلف الصالح الاهتمام بالفقراء والمساكين والأرامل والأيتام والمنقطعين (مالاً وغذّاءً وكساءً)، ثم بيوت الله وتعليم الكتاب والسنّة وتلاوة القرآن (مجالس ومدارس ومعاهد)، ثم فك أسير، وخلاص مسجون، وعمارة سبيل[*]، أي كل ما أمر به الله من الخير.

---

[*] مضمون وصية الأمير السيد (ق).

والوصيَّة من مشروعات الدِّين، وهي تصحّ عند الموحدين لوارث ولغير وارث، إذا كان الموصي عاقلاً مستكملاً شروط اللياقة القانونية، وعلى المرء أن يجتهد في براءة ذمته في حياته ومماته. ولا تجوز وصية بصدقة إلاّ بعد خلاص الذمة.

كذلك حرّمت الشرائع الرِبا، لأنه متلفة للأموال ومهلكة للنفوس، وقد تشدَّدَ مذهبُ التوحيد في هذا الأمر تشديدًا بالغًا.

أمانة الولد

قَالَ تَعَالَى في كتابه الكريم ﴿**هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ**﴾[1]. فالذرِّيَّةُ هبةٌ من الله تَعَالَى، ووديعةٌ غالية لأنّها روحٌ مشرقة في قلب المولود لتكونَ أمانةً بيد الوالدَين يتوجَّبُ عليهما حفظها ورعايتها على أكمل وجه.

إن مقاصد حكمة الخالق الوهّاب الجليلة بتهيئَة وتشريع أجواء "الكنَف" الأسريّ هي خلْق "بيئة" إنسانيَّة حميمة غايتها "الإنجاب"،

[1] [آل عمران ٣٨].

ووظيفتها حُسن الرّعاية والتربية حفظًا لبقاء النوع البشري، ومن حكمتِهِ تَعَالىَ، أن هذه الشهوة(*) أُوجِدَت في سائر أنواع الحيوان لاستمرار انواعه.

مقدّمات أساسيّة لحفظ الولد

اختيار الزوجة الصالحة

إنّ حكماء التّوحيد، بالنّظر إلى الغاية الشريفة من تكوين الأسرة، نبّهوا إلى وجوب تحقيق "شروط عظيمة" و"مقدّمات أساسيّة" لا بدّ من التزام المرء النّابه بها ليحقّق خطوةَ الزّواج استنادًا إلى وعي ناضج قائم على وحدةِ القلب والعقل معًا كما مرّ آنفًا. أهمّها حُسن انتخاب الزوجة بحيث لا يُسارع الشاب (أو الشابّة) إلى الافتتان بظواهر الأمور، بل عليه وعليها أن يتحقّق من طِيبةِ الرّوح، وتعلّقِها بالقيَم الأخلاقيَّة، واستشعارِها مسؤوليَّة بناء الأسرة، واكتسابِها الحدّ المقبول من ثقافة الحياة، وإدراكها السليم لمعنى خطوة

(*) المقصود الجماع.

الإقدام على الزّواج، وعن قول النبيّ الكريم (ص) تخيّروا لنطفكم، فإن العرق نزّاع، يعني يظهر تأثير الإمرأة في ولدها .

من ثمّ، فإنّ المسؤوليّةَ المشتركَة تقعُ تِباعًا على عاتق المتأهّلَيْن للإنجاب في مراحل الإخصاب والحَمْل والإرضاعِ ولزوم انقضاء المهلة الوافيَة بين الإنجاب والإنجاب. هذه كلّها تتطلّبُ وعيًا تربويًّا بالغَ اللطافَة، والتزامًا وجدانيًّا بدقائِق التّصرُّف الحكِيم إزاءها تحت طائلةِ تحمُّل التَّبعات المحسوبَة على الأوليَاء قبل الوصول إلى مرحلَة التَّربيَة المباشرة.

ومن الشروط الواجبة على المرأة أثناء الحمل، تدبير نفسها بما يقتضيه حُسن الرعاية في هذا الشأن، والاحتماء من كل شيء يوجب إسقاط الجنين ومنها تحريك الشهوة.

أما بعد الولادة فإن أصل تدبير الرضيع هو تدبير المرضعة، أي الأم. وأيضًا إن تحريك الشهوة يفسد الحليب، فيصبح غيلاً ، ويمرض الطفل، ومدة الرضاعة شرعاً حولين، فإذا فُطم الولد ينبغي أن يُعَوّد من الطعام ألينه وأخفّه، ويحظّر عليه اللحم حتى امتلاء بدنه.

التربية

تدخل التربية عنصرًا أساسيًا في موضوع الأمانة، فهي واجب إنسانيّ في المقام الأوّل، ومن حيث إنّها مفهوم شموليّ، فإنّ فعاليتها تمتدّ كالجذور في التّربة الإنسانيّة التي منها تستقي أهدافها المرتبطة بالضرورة بما أنعمه الله على الخلق من نِعَم وعطايا .

إن كلّ تربيةٍ أصيلةٍ هي التي تؤتي ثمرها من مَعين ذلك التطّلع الإنساني الفسيح، وأيّا تكن المقاربة التي ينتهجها وليُّ الأمر في العمليّة التربويّة، فإنّها إنْ لم تصبّ كالنّهر العذب في المحيط الإنساني، فهي محكومة بالعقم، وبالتالي، فإنّ نتائجَها ماضيةٌ في سبيلٍ وَعر ومُظلم، ولا يمكنها مواجهة كافّة متطلّبات الحياة وتحدّياتها .

أهم المفاهيم التربويّة الضروريّة:

١- الوقاية: هي الحفظ والحماية والصّيانة عبر النّصح والتأديب والتّعليم[١]، وأولى بالنّاصح المؤدّب أن يكون لذلك أهلاً .

٢- الرِّعاية: هي القيام على الأَمر بحفظه ومراقبته وإصلاحه وصَونه، وعلى وجه الخصوص الشأن التربويّ، فإنّ الرِّعاية

---

(١) (روح البيان).

تهدفُ إلى "تبليغ الشيء إلى كماله شيئًا فشيئًا"، وهذا يعني تهيئة الكائن الغضّ الّذي هوَ هِبَةٌ منَ الله تعالى، لِتمكينِه من اكِتساب المِلكاتِ الإنسانيَّة الشَّريفَة التي هيَ الصّفات الرَّاسِخَة في النَّفس ليثبتَ بها على التزام الفضيلةِ التي بهَا سوفَ يتحقَّق إنسانًا مُدركًا لمعنى السَّعادة الحقَّة.

٣- حِفظُ الأَمانة: إنَّ الكائنَ الحيَّ المولُودَ هوَ في الحقيقةِ وديعَةٌ فِي أيدِي مُنجبيه وأوليَاء أمره، بل هوَ كمَا قالَ حجَّةُ الإسلام الغزاليّ: "أمَانةٌ عندَ والدَيه، وقلبهُ الطَّاهِر جَوهرةٌ نفِيسةٌ ساذجَة خاليَةٌ عَن كلّ نقش وصُورَة، فإن عُوّدَ الخيرَ وعُلّمَهُ نشأَ عليه وسعِدَ فِي الدُّنيَا والآخِرَة يُشاركُهُ فِي ثوابه أبوَاهُ وكُلُّ مُعلمٍ لهُ ومُؤَدّب". هذه الأمانة الغالية توجبُ على الوالدَين القيام بحُسن رعايتها، وحِفظها بالتَّربيَةِ المستقيمَة، وتعليم "أدب الحياة".

٤- التعليم: قِيلَ في الحِكمة القديمَة "إنَّ أوائلَ الأمُور هيَ التي يجبُ أن تُراعَى لأنَّها الأكثر أهميَّة"، فالتَّعليمُ في الصّغر "أشدّ رسُوخًا، وهوَ أصلٌ لِما بعده. وقد جاء في أمثال سليمان الحكيم (ع):

"رَبِّ ابنَكَ وثقِّفه وفقاً لسبيله في الحياة، فمتى شاخَ لن يحيدَ عنه". أي إنه من الواجب على الوليّ مراعاة الولد بما هو مخلوق عليه في سياق المراحل التربويّة، والتنبّه إلى أن المكتسبات في العادات والميول تبقى آثارها إلى أواخر العمر من تلك الفترة المبكرة. وقد أشارَ الأميرُ السَّيِّدُ (ق) إلَى أنَّهُ من المستَحبّ أن يكونَ أوَّلُ انطِلاق اللسَان بعبارَةِ التَّوحيد لا إله إلاَّ الله، ومن الواجب تعويده على ذكر الألفاظ الدَّالة على الله سُبحَانَهُ تَعَالَى ومنها: (بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله رب العالمين، وسُبحان الله)، وأن يُعمَلَ منذ الصّغَر على ترسِيخ مظاهِر السّلوك المعتدِل ظاهرًا وباطِنًا، وأن تُعتَبر دلائلُ الحيَاء والاحتِشام في السَّمتِ إشارةً إلى "إشراقِ نور العَقل، وبِشارَة تدلّ على الأخلاق وصفاءِ القَلب"[1]. ثمَّ يُحبَّبُ إليه الفعلُ الجَميل، والتّواضُع، والاتّزانُ في الحرَكة، والتزامُ الأدَب في سائِر تصرّفاتِه. ويُحذَّرُ من مغبَّةِ الأخلاقِ الرَّديئَة كالكذب والحسَد واللجَاجة. ومنَ الحِكمَةِ أن لا يكون العِتابُ نهجًا متواترًا إذ أنَّهُ يؤدّي إلى

[1] (الغزالي).

النّفور، وأن لا يصل الإلحاحُ في التّعليم إلى حدّ الإرهاق إذ يؤدّي بدَوره إلى نتائج مؤذِيَة لحالَة التّلقّي. ويجبُ أن يُحتَرسَ احترَاسًا شديدًا ليُحفَظ من قرنَاءِ السُّوء، وأن يُعوَّدَ المشاركَة والأُلفَة مع الآخَر. وأن يُدركَ بأنَّ الرّفعةَ هيَ فِي العطاءِ لا فِي الأخذ، وهذِهِ أُمور تُسخَّر لتمكين الرُّوح من استِشعار أنس المشارَكة، لتَخرجَ إلى رحَاب الإنسانيَّة بعيدًا عن الأنانية والفردانيَّة الخالصَة الَّتي هيَ "أسوأ أعداء الهدَف التّربويّ السّامي" كمَا وردَ في الأدَب القدِيم.

ثمَّ إنَّه بتدرُّج السّنوات "يُعوَّدُ على سلامَةِ النُّطق، واستِقامَة اللغة، وتوسيع المدارك على قاعِدةِ تنَاسُب طبيعَة العلُوم مع طبيعة النموّ العقليّ". وينبغي على الوالدِ فِي ولدِه، والمعلّمِ في مُتعلِمه، أن لا يستبدّ عليه فِي التَّأدِيب كما يقولُ ابنُ خلدون، "فالقسوةُ تُفسِدُ معاني الإنسانيَّة، وتُبعِدُ النَّفس عن الفضَائل والخُلُق الجَميل، بل يجبُ استخدام القُدوَة الحسنَة فِي التَّعليم، فالأطفالُ يتأَثَّرونَ بالتَّقليدِ والمُحاكاةِ والمثُل العُليَا الَّتي يرونَها". وإذا تبدَّت منهُ علامَات التّمييز،

عُلِّمَ ما يحتاجُهُ من حدُودِ الشَّرع، فإذا أدركَ البلُوغ، كانَ واقفًا على مَا عُهِد إليه مِن مُفتَرضات.

يقظة البلوغ

يقظـة الـروح في يفـاع العمـر هـي انشـغال الـوعي بفهـم معـاني المشاعر السـامية التي تحسَّسها المولود عبر حنان الأم وهيبـة الأب، وهي انفعال إنسانيّ يؤدي في حالة التربية على الأخلاق الى استشعار هيبة الخالق، وتتولّد هذه الحركة الفطرية في الذات الناشـئة بواسـطة التربيـة السـليمة الـتي توفرهـا أجـواء الأسـرة، فـإذا تعلَّـم الولـد تِـلاوة وتكرار الكلمات التاليـة: الله معي، الله نـاظري، الله شـاهدي. كـان اليافع كمن يحمل سلاحاً معنويًا تقوى به نفسُهُ، وتتهذَّب في مواجهـة مفاسِد الدُنيا.

وكيـف يمكـن لليـافع الـذي أدرك البلـوغ أن يحـدّد خِيـاره في أيّ مرحلةٍ لاحقةٍ من عمره إن لم تكن شخصيتُه الإنسـانيّة مهيّـأةً بـالمعنى الوجـوديّ (أي وعـي الحضـور في العـالَم)، والعقلـيّ والرّوحـيّ؟ إنّ المساهمة التربويّة التي يقدّمها الأهـل، بوعي منهُم أو بغير وعي، هـي

مساهمة مسؤولة الى حدّ كبير عن خِيارات المرء والاتّجاهات التي يمضي بها في طرُق الحياة، من دون الاستهانة أبدًا بالمسؤوليّة التي يؤسِّسُ لها العقلُ المُدرِكُ الذي هو هبة من الله تَعَالَى للإنسان.

إن الوجودَ، بما يرىَ منهُ اليافعُ، وما يسمعُه ويلمسُه ويذوقُه ويشمّه، اي ما يتلقّاه بالصّورة والصّوت والإحساس وما شاكل، تشكّلِ كُلَّها، في نتيجة الأمر، زادًا للذّاكرة والحافظة والخيال.

ومهما بلغ سن التَمييز يجب أن لا يسامح في ترك الطهارة والصلاة وتحذيره من فعل الزنا .

ومن قول أفلاطون الحكيم "أن على الأب في ولده ثلاثة فروض أحدهما تفقيهه في شريعته، والثاني تعليمه صناعة يكتسب بها، والثالث حضّه على حسن القناعة" .

البُلوغ

يُرفَعُ القلمُ عنِ "الصَّبيّ حتَّى يحتِلم" كما ورد في الحديثِ الشَّريف، واتُّفِقَ عَلَى أنَّ حصولَ الاحتِلام هو علامة النُّضج وإدراك سنّ البلُوغ (أو العلامة الأخرى وهي بلوغ سنّ الخامسة عشرة لدى

غالبيّة المذاهب)، وهذا يعني المباشرَة في تحمُّل البالِغ المسؤوليَّة عن أفعالِه. أمّا منَ النّاحيَة التّربويَّة، فإنَّ الدّارسين يميلون إلى التّمهُّل في اعتباره "راشِدًا" بالمعنَى الوافي لحقيقَة "الرّشد"، ذلك أنَّ البالِغ الغضّ لا زال فِي مرحلةِ "نموٍّ سريع" يحدثُ فيها الكثير منَ التغيُّرات الجسميَّة والعقليَّة والوجدانيَّة والاجتماعيَّة والنفسيَّة "يكونُ الفردُ فيها بأمسّ الحاجَة للعنايةِ والتّوجيهِ الخُلُقيّ والدّينيّ".

سن البلوغ محطة هامّة في حياة البالغ، حيث تتفتح براعم الرجولة أو الأنوثة، وعند هذا الحدّ يقف البالغ أمام امتحان صعب.

إن المسؤولية قبل البلوغ تقع على عاتق الأهل تجاه أبنائهم على مدى عمرهم بكامله، أمّا بعد البلوغ فيتحمّل المرءُ مسؤولية أفعاله شرعًا، ولكن هل يأمن الأهل من ترك أولادهم على مسؤوليتهم في هذا الزمن الصعب؟

نأمل أن يكون هذا الكتاب مدخلاً مُسَاعِدًا لشبابنا وشابّاتنا في تنوير بصائرِهم لاتّخاذِهم في مسالِكهم الخيار الصحيح.

مخاطر الحياة المعاصرة

تواجهُ الجيل المعاصر صعوبات جمّة في ما يتعلّق بالاهتداء إلى مداخل السّلوك في سبيلٍ محمودٍ يحصّنهُم في ذواتهم من مخاطر الانحلال والضّياع. ويعود السببُ في تلك الصّعوبة إلى وجود عوامل كثيرة فرضتها الحداثةُ على مجتمعاتٍ لم تتوفّر لها الفرصةُ المطلوبة لكي تضعَ قواعد التّمييز بين ما هوَ مُجْدٍ في هذه الحداثة، وبين ما هو مُؤذٍ وبالغ الضّرر. ويُمكن أن يُذكَر من تلك العوامل ما يلي:

- طغيان الصّورة عبر كافّة وسائل الاتّصال، وما يحملُ معظمُها من "رسائل" بصريّة خارجة في مضمونها عن كلِّ الوصايا والتراث الحكَميّ الأخلاقي.
- انتشار النّظرة النسبيّة في طرائق الفكر، وما يستتبعُ ذلك من عموم حالة الفوضى في تحديد المفاهيم والمعاني، وما ينتج عن ذلك من نزوع إلى السطحيّةِ والابتذال، وإضاعة الوقت في التسلية واللهو.
- تفشّي حالة النّزوع إلى اتّباع ما يُسمّى "الموضة"، وما تسبّبه من تمسُّكٍ "مَرَضيّ" بالمظاهر الباذخة، والتّقليد الرّخيص، وهذا كلّه

انعكس سلبًا على مناخ المناسبات الاجتماعيَّة، وما يراهُ النّاسُ فيها من ظواهر صاخبةٍ ومثيرة بشكلٍ حاد لكلّ الحواسّ الظاهرة والباطنة على حدٍّ سواء.

- تراجُع دور التربية الأسريَّة نتيجة مؤثّرات كثيرة. كلّ هذا على حساب تركيز الانتباه على أهميّة المحافظة على ما يمكن أن نسمّيه "الجوّ التربويّ الدافئ للكنف العائلي"، وهذه خسارة لا يعوّضُها إلا مَن استشعر أثر كُلّ تلك الأخطار على مستقبل عائلته وفلذات كبده.

في الخلاصة من عَرَف الله سُبحَانَهُ وتَعَالىَ وأحبَه وخشيه، لا بد أن يحفظ أمانته، وكلّ على قدر همته واستطاعته، وبهذا فإن المؤمنين كما ذكرنا، هم منازل ودرجات.

الفصل الخامس

العِلـمُ

تعريف عام

العِلمُ هو "صُورةُ المعلُوم فِي نفْسِ العالِم، ومعرفتُهُ على ما هوَ عليه"، وهوَ بالمفهومِ العَام نَقِيضُ الجَهل، وبالإجمَال هو اسمٌ لكلِّ العُلوم، وفضلُهُ لا يُخفَى كمَا قالَ تعَالى **﴿يرفَع اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُم وَالَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجاتٍ﴾**[1]. فإذا كان الجهلُ هو خلوّ النّفس منَ العِلم، واعتقادَ الشيء بخلافِ ما هوَ عليه، وفِعلُهُ بخلافِ ما حقّه أن يُفعل، فإنّ العِلمَ هو عكس ذلك تمامًا. ولـمَّا كان الجهلُ نقيصةً لا تليقُ بالإنسانِ السَّويّ، فحقٌ عليه أن ينهلَ العِلمَ بالمنهج الصّحيح الّذي يؤتي ثمره الثّمين الخيّر. قال تعَالَى: **﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾**[2]

---

[1] [المجادلة ١١].
[2] [لقمان ٣١].

أقسام العِلم وفروعُه

مقدمة

العلم هو من نعم الله تَعَالىَ على الإنسان، قال أحد الحُكماء: إن الله سُبحَانه وتَعَالَى اختار آدم لسرِّه المكنون، وعلمه المخزون، وهو نبيٌّ مُرسل، خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وعلّمه سبعين بابًا من العلم.

وجاء في القرآن الكريم عن جبريل: **﴿نَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾**[1]. والمعنى: انه لقول جبريل القوي في العلم والعمل وذي مكانة وجاه عند الله مُطاع من الملائكة، وأمين على الوحي.

كما عُرِفَ عن النبيّ هرمس(ع) أنه باب الفلسفة ومُبتَدِعُها، وواضِع الصناعات والألحان، ولذلك سُمِيَ مُفتاح العِلم، وهو المثلث بالنبوّة، والحكمة، والمُلك، وسُمي المثَّلث بالنِعْمَة، وفيها أقوال

---

[1] [التكوير ١٩-٢٠-٢١].

مُتعدّدَة، منها أنه مُنح ثلاث نِعَم وهي علم الأرضيات، والسمائيات، والروحانيات.

إنَّ المعوَّل عليه هنا، هو الوقوفُ على معنى العِلم وفق مقاربة توحيديَّة لا تقفُ عند حدود تعداد حقول النَّظر والبحث وحسب، بل تُميّزُ في المعيار الأسمى بين ما هو إخباري في العِلم من جهة، وبين ما هو تنويريّ لجهة الغاية الأمثل من أهدافه من جهةٍ أُخرى.

العقلُ الطّبيعي: فَهْم أسرار الطّبيعة

تعدَّدت عبر تاريخ الحضارة النَّظرةُ إلى شبكة تفرُّع العلوم وذلك عائدٌ لأسباب عدَّة، أهمُّها: تنوُّع مادّة المعلوم في الطّبيعة والحياة والنّفس الإنسانيَّة، ثمَّ، تطوُّر المناهج والأدوات وتقنيات البحث مع تقدُّم الزَّمن واتّساع الاكتشافات.

العِلمُ في المستَوى العَام، تأسَّسَ عَبر مُراقَبة حركَات الطَّبيعَة، والمُحَاولة الدَّائمة لفَهم أسْرارها، وآليّات عمَلِها. وبنَاءً على نتائج البحث الدؤوب المتواصِل استنبطَ العُلماءُ الكثِيرَ منَ القوَاعِد

والـمَناهِجِ الَّتي بَاتَت مـوادًا تعليميّـةً لِكَافَّـة النَّـاس، يَطلبُونَهـا في الـمَدَارس، ومِـن ثـمّ في الجَامِعَـات ومعَاهـد الدّراسَـات العَاليـة والـمُتخصّصَة. ومَعلـومٌ، أنّـه بتقـدُّم الـمَعَارف، تَنوَّعـت العُلُـوم، وتَشعَّبَتْ مَنَاهجُ الاختِصَاص تَشعُّبًا مُطّردًا ومتزايدًا باستمرار.

هذِه العُلُوم متعلّقَة بِمَا يُسمّيه التَّوحِيد "العقلُ الطَّبيعيّ" الّذي ينظر في فهم أسرار الطّبيعة (الفيزياء وكلّ ما يتعلّق بها)، والحياة (الجسم الحيّ أينما كان)، وهو عقلٌ برَسْم سائر النّاس وفقًا لالتقاطِ المعلومات، واستيعاب وظائفها، ودرَجات التّعامل معها وتطويرهَا عبر الصُّروح العِلميَّة بمختَلَف أصنافِها. فالطِبُّ، على المثال، يدرسُ عِلمَ وظائف الجسَد المتشعّبة، وعِلَل صحَّتها واضطراباتها، ونظرًا لتعقُّد أجْهزَة الأنظِمة البيولُوجيَّة للجسْم البَشريّ، توسَّعت مَجَالات الاختِصاص فيه إلى حَدٍ يكادُ يطالُ كلّ تفصِيل ظاهريّ وخفيّ في هذَا المَدَى المُذهِل لخلايا الحياةِ وأنسِجَتها وكيفيَّات عمَلِها البَدِيع.

والهندسةُ مشتَقَّةٌ في الأسَاس مِن اكتشافِ البُنيات الخفيَّة في عَالَم الحِسّ المَرئيّ. وهي بُنيات لها أساسٌ رياضيّ يولّدُ التوازنَ،

ويحفظُ الحركة التي فيه لتؤدّي دورَها ووظيفتها بالشَّكل اللائق.
كذلك تشعَّبَ هذا العِلمُ بشكلٍ مُذهِل، وولَّد الكمَّ الهائل من أُسُس الصّناعات المتطوّرة بتواتر غير مسبوق في التَّاريخ المعروف.

أيضًا، العلوم الإنسانيَّة، بالرّغم مِن عدَم اعتِبارهَا علومًا بَحتَة متولّدة من نتائج الاختبارات العمَليَّة، وتجارب المختبَرات، فإنَّها عبَّرت عن حقولها المتَّسعة باطّراد عن نزعةٍ نحوَ التحليل "العِلميّ" لكلّ ما يمتّ إلى الإنسانِ في "شخصِه" وفي مجتمعه، وفي مراحل "تطوُّره" في شتَّى المَجَالات، الفِكريَّة منهَا والنَّفسيّة والاجتِماعيَّة والحضاريَّة بمختلفِ وجوهِها.

إنَّ حصيلةَ هذه العُلوم، ونِتاجها التَّطبيقي، تتصدَّرُ مشهدَ "الحضَارة" في التصوُّر الإعلاميّ العَام، ذلك أنَّها غيَّرتْ وبدَّلت في طرائق العَيش اليوميّ ووسائله وآفاقه بشكلٍ مُتسَارع لا يكادُ الإدراكُ البشريُّ أن يكونَ قادرًا على التقاط آثاره وفعاليَّاته في المستوى النَّفسيّ والوجدانيّ والوجوديّ للأفراد والمجتمعات على حدّ سواء، وهي علوم يحتاجها الإنسان، إن أراد التخصّص في حقلٍ من الحقول، لاكتساب مهنة توفِّر له الرزق الحلال، مع التزام قاعدة التميز في تدبير شؤونه.

العقلُ الإيمانيّ: فَهْم الشَّريعة

هوَ جوهرٌ فاعلٌ في النّفس البشريَّة، مُقِرٌّ بوجودِ الله تعالى ووحدانيّته، وهو الإيمانُ الّذي يستتبعُ الإقرار والتّصديق برُسُله ودعوته وأمره ونهيه، واليوم الآخر، والثواب والعقاب، وبأنّ ﴿**مَن عمِلَ صَالحًا مِن ذكرٍ أو أنثى وهُوَ مُؤمنٌ فلَنُحْيِيَنَّهُ حياةً طيّبةً ولَنجْزِيَنَّهُم أجرَهُم بأحسنِ ما كانُوا يَعمَلُون**﴾[1].

ولا بدّ للعقل الإيمانيّ من أن ينهلَ العِلمَ من "الشَّريعة" (أي الدعوة) ذاتها كما ورد فيها في كلِّ عصر تنبيهًا للمؤمنين. فقد ورد في العهد القديم: ﴿أنا الرَّبُّ إلهكَ معلِّمُكَ لتنتفع، وأمشّيكَ في طريق تسلك فيه﴾[2].

وذكر الإنجيلُ أنَّ السيِّد المسيح ﴿كانَ يُعلِّمُ كلّ يومٍ في الهيكل﴾[3]، وقال بولس في الرّسالة إلى رومية: ﴿لأنَّ لك في الشَّريعة كمالَ المعرفة والحقيقة﴾.

---

[1] [النحل:٩٧].
[2] [إشعيا، ١٧:٤٨]
[3] [لوقا، ٤٧:٢٠]

أمّا في القرآن الكريم، فقد تواترت الآيات في الحثّ على اكتساب فضيلة العِلم ﴿**وقُل ربّي زدْني علمًا**﴾[1]، وقال تعالى ﴿**يرفعُ اللهُ الّذينَ آمَنوا والّذينَ أُوتُوا العلمَ درَجاتٍ**﴾[2].

إنَّ علمَ الشَّريعةِ واستبصار دلالات الدّعوة كان من شأنهما أن "يولِّدا الحياةَ الإسلاميَّة كلَّها" كما قال أحد العلماء شارحًا: "فمِنَ النَّظر في قَوانينِ القرآن العَمليَّة نشأ الفقه. ومن النظر فيه ككتاب يضعُ الميتافيزيقا نشأ الكلام. ومن النظر فيه ككتابٍ للآخرة نشأ الزّهدُ والتصوّف والأخلاق. ومن النظر فيه ككتابٍ للحُكم نشأ علمُ السياسة. ومن النظر فيه كلغةٍ إلهيَّة نشأت علومُ اللغة... وتطوّرُ العلومِ الإسلاميّةِ جميعها إنّما ينبغي أن يُبحثَ في هذا النطاق: في النطاق القرآنيّ نشأت، وفيه نضجت وترعرعت، وفيه تطوّرت، وواجهت علومَ الأمم تؤيّدُها أو تنكرُها في ضوئه"[3].

لكنَّ النَّظرَ في علُوم الشَّريعة ولَّد – نتيجة اختلاف المقاربة في بعض المفاهيم، وأهمها الإمامة– تمييزًا في العِلم بين معنَيَيْن: أوّلهما هو

---

[1] [طه، ١١٤].
[2] [المجادلة، ١١]
[3] [النشار].

الوقوفُ عند حدود النَّصّ كما هي في ظاهرها، وثانيهما هو استنباطُ المقاصد وفق وجوه التّفسير استنادًا إلى المعاني العميقة في الباطن. وكان من أثر ذلك أن ميَّز المتصوّفةُ بين "الشَّريعة والطَّريقة والحقيقة" مع تأكيدهم الرّاسخ بأنَّ علمَ الشَّريعة واحد يجمعُ سبيلَيْن، هُما: الرّواية والدّراية[1]. وهذه العلوم يمكن أن يتخصَّص بها من يرغب في دراسة الشريعة والعلوم الإلهية.

غايةُ العِلم: التَّوحيد

التوحيد علم الحقيقة لا تخلو منه أرض ولا يخلو منه زمان.

غايةُ العِلم المُثمر أن يهديَ النَّفسَ إلى المعرفةِ الصَّادقةِ التي من شأنها أن تُحيي الرُّوحَ، وتُسدّد خطاها في مسالِكها المعنويَّة والعمليَّة نحو التَّحقُّق الإنساني الأمثَل، وهوَ الالتزامُ الحيُّ بمفاهيم التَّوحيد التي هي العدل والحقّ والخير.

والعِلمُ الحقيقيُّ هو المنبثقُ من أمر الله وتأييدِه وواسطتِه، فهوَ للنّفوس كالماءِ في الطَّبيعةِ، جُعِلَ منهُ كلّ شيءٍ حيّ، فإذا اتُّخِذَ بالرأي

---

[1] (الطّوسي)

والقياس وفق أهواء النّفوس ونوازع الذات، انزاحَ عن أحقّيته، وبات ضربًا من المعلومات العقيمة يلهو بها اللاهون، ويتيهُ في ظاهرها التّائهون. أمّا إذا تمّ اقتباسُهُ من معينه الأصل، وجُعِلَ غذاءً لمسالك النفس ونهج العقل، بات سُلَمًا للارتقاء، وثوابًا مُباركًا في الدارَين، فلا ارتواء إلا من فيض الحِكمَة الرّبانيّة.

يرقى التّوحيدُ بالعِلم إلى المستوى الأسمى المتعلّق بالغايةِ الخيّرَةِ من وُجُود الإنسان في هذا الكون. لذلك، يؤكّدُ التّوحيدُ على أهميّة العلّة الغائيّة في الطبيعة، بمعنى أنّ الغاية هي أشرف المطلوبات قياسًا إلى الحركة المتولّدة في الوجود الكونيّ. هذا يعني، فيما خصّ الإنسان، المسؤوليّة الأخلاقيّة والمعنويّة والمصيريّة عن أعماله التي يُبادر إليها في وجوده المُعطى له مدى الحياة بأسرها.

يُسلّمُ التّوحيدُ بتقدُّم العِلم شرط ارتباطه بالغايات الخيّرة والمستقيمة التي تخدم الإنسان ولا تسخّره لأغراض المصالِح الماديّة، والصّراعات الدّنيويّة. ويرتبطُ هذا التقدّم كما ذكرنا أعلاه بالمستوى الطبيعيّ لإدراكات العقل المتعدّدة، أي المستوى الّذي يحاول فهم عمل

الطبيعة ذاتها بالشكل اللائق للمعرفة الإنسانيّة. أمّا في الحقل الّذي سُمّي "ما بعد الطبيعة"، أي أسرار حركتها، وغاياتها، ووجود الإنسان الحيّ الناطق العاقل المميّز فيها، والحقائق التي تدمغ نفسَه بطبائع متضاددة بين الخير والشرّ، واليقين والشكّ، والعدل والظّلم، والمعرفة والجهل إلخ. . . فهو حقل لا يُمكن فهمه بمستوى الإدراك الطبيعيّ للعقل الإنسانيّ، وإنّما بالمستوى الأرقى وهو المُكتسب جرّاء التزام الخير والسّكينة والإيمان والتّقوى واعتقاد الحقّ، والتشبّث بالأخلاق المحمودة وانعكاسات تطبيقها على نورانيّة النّفس وارتقائها إلى المعرفة الروحانيّة وحقائق التكوين والوجود التي بها يتحقّقُ الإنسانُ إنساناً وفق الإرادة الإلهيّة الخيِّرة.

فكرة المفيد عند الموحدين

"الإفادة" في المفهوم التّوحيدي هي صِلة طبائع الخير بلطائف المعنى، لذلك فإن الغاية منها أيضاً أن تكون حلقة التّوحيد جامعة، تصِل الكلّ بالكلّ في روضة الخير. وإن كان عِلمُ الطالب ينمو بتوجيه مفيد، ولكن على درب "الصّلة" بالكلّ. فإن المُذاكرة في التّوحيد بعيدة

كلّ البُعد عن مفهوم "الغورو Gourou" عند البوذيّة، أي صاحب حلقة ومُريدين وأتباع وطريقة خاصة بِهِم مستقلّة بطقوسها، ويكون هو لهم بمثابة "مرشد" و"معلّم" ومثال، عندهم وعند من يتأثّر بهم، أو ينحو نحوهم. إذ أنَّ المفيد في التَّوحيد هو الّذي يحرّكُ وعيَ الطّالب باتّجاه نور السموات والأرض، أي علمه المعبَّر عنه برسالات الأنبياء إلى الطّور الأخير الذي تصبو الروح إليه. بهذا، يصبح الأخوان حالة يشدّ بها الواحد منهم حال الآخر كما قال "على سُرُر متقابلين". ويجمعهم بذلك "الصّلة" بالحقّ، كلٌّ يحترم شيخَه المفيد في العلم والعمل، وفي الوقت عينه الشيوخ الثّقات.

والمعروف أن للشّيوخ مسالك متعدّدَة، وكلّها من أجل غاية واحدة، منهم من يرقى متميّزًا بالزهد، ومنهُم من يتميَّز بالورع والخوف، ومنهُم من يتميّز بسعة الاطّلاع والدّرس، ومنهم من يتميّز بالشجاعة، ومنهُم من يعاني الشوق والوجد أكثر من غيره... هذا يوجبُ على الموحّد أن يستقي المعاني من الثقات المستنيرين بيقينهم، المرتكز على العملَ والتّحقّق وصدق المسالك. ويعني أيضًا أن يربّي ملكة التمييز عنده كي يجني من المفيدين كما يستقي الماء العذب من كلّ نبع صاف.

الفصل السادس

العَمَــل

العمل هو ما يبادر الإنسانُ إلى فعله بشكلٍ عام، والمقصُود به هنا هوَ العملُ بما يقتضيهُ التَّوحيدُ من واجباتٍ مسلكيَّة، والتزاماتٍ أخلاقيَّة، وعهودٍ معنويَّة، يترتَّبُ عن مخالفتها انقطاعٌ من الصّلةِ بالعِلم وثماره. والعمل الصالح الموافق لقواعد نظام التوحيد هو بركةٌ مُحْيِيَة نافِعَة للمرء المخلص في دُنياه وأُخراه.

قال تعالى في كتابه الكريم ﴿**وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَت**﴾[1]، أي تُعطى كلّ نفس جزاء ما عملته من أعمال في الدّنيا، وبهذا يكون العملُ هو برهانُ الصَّادِق على حقيقة نواياه، وتصديق قلبه بالحقّ، وإيمانه الرّاسخ بوجودِ الله المثيب المعاقب. ويكونُ أيضًا هو المعوَّل عليه عند الله عزَّ وجلّ إذا كان خالصًا لوجهه.

---

[1] [النحل ١١١]

ومن أقوال هرمس الحكيم (ع): إعلمي يا نفس أنكِ لم تُخلقي لمعنى من المعاني إلا للعِلم والعمل، كذلك الثمرة الطّيبة لم تُخلَق إلا للأكل.

إنَّ قاعدةَ ارتباط العِلم بالعمل به هي قاعدة من الثوابت الأساسيَّة في المسلك، ولا يُنتفَع بالعِلم حتّى يصدقه العمل، كذلك، لا يُنتفَع بالعمَل حتّى يثبته الإخلاص وحسن النيَّة.

جاء في الحديثِ الشريف: "الإيمان قولٌ باللسان، وعمل بالأركان، ويقين بالقلب"، وقد اعتُبر هذا الحديث من أصُول الإيمان لأنَّ العمل الصّالح هو تحقيق لغاية العلم وصولاً إلى المعرفة، وصدق النيَّة فيه هو بمثابة الرُّوح التي تجعله مقبولا عند الله تعالى، ومدعاة للامتّثال والتّوبة عند الخَلق. وقد قيل: "من رضيَ لنفسه بالمعرفة والقول دون العمل لم يكن مؤمنًا، ولم تنفعه المعرفة والقول"، وضربوا مثلاً بأن العِلمَ شجرة والعمل ثمرتها، فإن لم يكن للشجرة ثمر فالقطع أولى بها.

العمل بالأركان

الأركانُ هي المفترضاتُ أساسًا، وقيل إنّها الجوارحُ لأنَّ بابَ العمل والسّلوك هو استخدام الجوارح في ما خُلِقت له. هذا يُوجِبُ أن لا يجعل الإنسان نظره وسمعَهُ ونطقَه وسعيَه وسائل لارتكاب المعصية، بل أدوات لاكتساب كلّ ما يساعدُ على فِعل الخير ومعرفة أبوابه على الحقيقة.

قال الكرخي: "إذا أراد الله بعبدٍ خيرًا فتح له بابَ العمل، وأغلق عنه بابَ الجدل"، أي يهدي بصيرته إلى ما فيه الصّواب، ويوفّقه إلى ثبات الإرادة في نهج الاجتناب، فيبتعدُ عن كلِّ ما يُخرِجُ حواسه عن حدود الأدب والأخلاق الحميدة، وتصيرُ أعمالُه شاهدًا على صدقه وإخلاص نيّته.

وقد أوضح الشيخ الفاضل (ر) أبواب العمل في "شرح الخصال" التي تُجسِّد إضافةً إلى آدابِه وخواطرِه أدب الدِّين الصحيح، نورد منه في ما يلي مقدّمات، استبراكًا وتعميمًا للفائدة.

من جملة الشروط الواجبة على الاخوان

١- تقوى الله سُبحَانه وتعالى. فكأنّ خيرات الدنيا والآخرة جُمعت تحت هذه الخصلة الواحدة التي هي التقوى، فتأمَّل في القرآن من ذِكْرِها كم علّق بها من خير، وكم وعد عليها من ثواب، وكم أضاف اليها من سعادةٍ. أوّلها المِدْحَةُ والثَّناء. قَالَ الله تَعَالَى ﴿ **وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ** ﴾[1]. والثاني الحفظ والحراسَة من الأَعداء. قال الله تعَالى ﴿ **وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا** ﴾[2]. والثالث التأْييد والنُّصْرَة قال الله تَعَالَى ﴿ **إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ** ﴾[3] والرابع النجاةُ من الشدائد والرّزق الحلال. قال الله تَعَالَى ﴿ **وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ** ﴾[4] والخامس اصْلاحُ العَمَل قال الله تَعَالى ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا . يُصْلِحْ لَكُمْ**

---

[1] [آل عمران ١٨٦].
[2] [آل عمران ١٢٠]
[3] [النحل ١٢٨].
[4] [سورة الطلاق ٢-٣].

﴿أَعْمَالَكُمْ﴾[1] والسادسُ غفرانُ الذنوب قوله تعالى ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[2] والسَّابع محبّة الله تَعَالَى قال الله تَعَالَى ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِيْنَ﴾[3] والثامن قَبُول العَمَل والدُّعَاء من المتَّقِيْنَ، قال الله تَعَالَى ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾[4] والتاسعُ الأكرام والإعْزاز، قال الله تَعَالَى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[5] والعاشِر البشارة عند الموت، قال الله تَعَالَى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ. لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾[6] والحادي عَشَر النجاة من النَّار، قال الله تَعَالَى ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾[7] والثاني عشر الخلود في الجَنَّة، قال الله تَعَالَى ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[8] فهذا كلّ خيرٍ وسعادة في الدّارَيْن تحت هَذِهِ التقوى.

والتقوى هو اجتناب كُل ما تخاف منه ضرراً في أمر دينكَ، ألا ترى أنه يُقال للمريض المحتمي إنه متَّقي، إذا اجتنب كل شيء

---

(1) [الأحزاب ٧٠-٧١].
(2) [آل عمران ٣١].
(3) [التوبة ٤].
(4) [المائدة ٢٧].
(5) [الحجرات ١٣].
(6) [يونس ٦٣-٦٤].
(7) [الزمر ٦١].
(8) [آل عمران ١٣٣]

يضرُه في بدنه من طعام أو شراب أو فاكهة أو غيره، ثم إنّ الشرور نوعان شرّ أصلي وهو ما نُهِيَ عَنْهُ كالمعاصي المحضة، وشرّ غير أصلي وهو ما نُهِيَ عَنْهُ تأديبًا وهو فضول الحلال كالمُبَاحَات المأخوذة بالشهوات. فالأَوَّل تَقْوَى فرض يُلْزَم بتَرْكها عذاب النَّار، والثانيَة تقوى خير وَأَدَب يُلزَمُ بتَرْكِهَا الحَبْس والحساب والتَّعيير واللوم. فمن أَتَى بالأُولى فهو في الدرجة الأدنى من التقوى. ومَنْ أَتَى بالأخرى فهو في الدرجة العُلْيَا من التقوى. وإذا جَمَعَ العبد بَيْنَهُمَا عَلَى اجتناب كل معصية وفضول. فقد استكمل معنى التقوى وقام بحقّها وَجَمَعَ كل خَيرٍ فيها . وهو الورع الكامل الذي هو ملاك أمر الدين. وذلك منزلةُ الأَدَب على بابِ الله سُبْحَانَهُ. فهذا معنى التقوى وبَيَانُهَا .

٢- حُسن المعاملة في البيع والشراء والأخذ والعطاء والقرض والوفاء، وغير ذلك من سائر المعاملات. لأن المعاملة الصحيحة عليها اعتماد عظيم في الدين، ويستدل على صحة دين المرء في حسن معاملته، ان الربّ سُبحانه وتعالى يؤاخذ

على مثقال الذَّرَّة. قال الله تعالى: ﴿**فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ**"﴾[1]، وقال تعَالى يا داود اسمع ما أقول كم من سيفٍ يُعْرَفُ بالقَطْع فيُضْرَبُ بهِ فلا يقْطَع شيئًا. فمَثَلهُ كمَثَل رجُل مُسْتتِر بالعبادة، ما لم تعَامِلهُ بدينارك. أمّا إذا عامَلتَه ذهَبَتْ عَنْهُ مراتب العبادةِ. وقَال تعَالىَ أيضًا: "هل تدْرِي من الذي يُغضِبُنِي ويُقْلقِلُ عَرْشِي الَّذِي يَبْخس فِي الْكيْل والْوَزنِ ويُلامس فُرُوج الحَرَام".

٣- حُسْنُ الأَخْلاقِ وَلِيْنُ الجَانِب وَالصَّبْر وَالاحْتِمَال. فَأَمَّا حُسْنُ الاَخْلاقِ فَهِيَ الْخَصْلَةُ الْمَرْضِيَّةُ، وَالسَّجِيَّةُ الْمُنْجِيَةُ، الَّتِي بِهَا تُنَالُ خَيْرَاتُ الدُّنْيَا وَالآخِرَة، وَبِهَا تَكُوْنُ السَّعَادَةُ فِي الدَّارَيْنِ، إِذَا اقْتَرَنَتْ بِالإِيمَان وَالدِّيْنِ، فَالْخُلُقُ الْحَسَنُ عونٌ عَظِيْمٌ لِلإنْسَان عَلَى دِيْنِهِ وَعَلَى طَاعَةِ رَبِّهِ وَمُعَامَلَتِه لِلنَّاس وَمُعَاشَرَتِهِ لَهُمْ فَيُرِيْحُ وَيَسْتَرِيْحُ، يَقُوْلُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَنْ حَسُنَ خُلُقُهُ حَسُنَ دِيْنُهُ، وَكَانَتْ لَهُ مَعَايِشُ الدُّنْيَا وَالآخِرَة، وَقِيْلَ أَسَاسُ الْخَيْرِ كُلِّهِ حَالانِ تَهْذِيْبُ الأَخْلاقِ، وَاسْتِشْعَارُ الْخَلاّقِ، وَالاَخْلاقُ

---

[1] [سورة الزلزلة ٧ و٨].

بِالْحَقِيْقَةِ، هِيَ طَبَائِعُ الْعَقْلِ الْخَمْسَةُ، وَجَمِيْعُ مَا يَظْهَرُ مِنَ الْمَحَاسِنِ وَالأَفْعَالِ الْجَمِيْلَةِ، وَالأَخْلاقِ الرَّضِيَّةِ، والآدّاب وَالسَّمْتِ الْقَوِيمِ هِيَ مَوْلُوْدُ هَذِهِ الطَّبَائِعِ الْمَحْمُوْدَةِ السَّعِيْدَةْ لأَنَّهَا مَقَرُّ الدِّيْنِ وَمَعْدَنُهُ. وَلاَ ثَبَاتَ لِلدِّيْنِ إلاَّ بِهَا . وَقَالَ بَعْضُهُمْ فَصْلٌ فِي رِيَاضَةِ النَّفْسِ. إعْلَمْ إنَّ لِلنَّفْسِ رَذَائِلَ لاَ بُدَّ مِنْ تَصْفِيَتِهَا وَتَنْقِيَتِهَا . وَذَلِكَ هُوَ الْجِهَادُ الأَكْبَرُ. وَبِهِ يَصِلُ الْعَبْدُ إِلَى نَعِيْمِ الأَبَدِ . فَمَنْ أَرَادَ تَهْذِيْبَ النَّفْسِ فَعَلَيْهِ أَولاً بِحُسْنِ الْخُلُقِ أَيْ تَطْهِيْرِ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ وَلاَ يَحْصُلُ الْغَرَضُ إلاَّ بِالْمُجَاهَدَةِ وَالصَّبْرِ عَلَى مَا يَكْرَهُ وَدَفْعِ الْغَضَبِ وَالشَّهْوَةِ إِلَى أَنْ يَصِيْرَ ذَلِكَ عَادَةً وَتَغْلِبَ الصِّفَاتُ الْحَمِيْدَةُ عَلَى الصِّفَاتِ الْمَذْمُوْمَةِ لأَنَّ كُلَّ شَيْئٍ يَتَكَلَّفُ لَهُ الإِنْسَانُ بِالْمُدَاوَمَةِ صَارَ عَادَةً وَاطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ. لأَنَّهُ مَجْبُوْلٌ فِيْهَا بِالْقُوَّةِ وَيَظْهَرُ إِلَى الْفِعْلِ بِالاجْتِهَادِ وَالتَّكَلُّفِ. فَمَنْ وَفَّقَتْهُ الْعِنَايَةُ إِلَى الْمُدَاوَمَةِ عَلَى الْعِبَادَاتِ. وَمُخَالَفَةِ الشَّهَوَاتِ. كان شعاره الحلم وأنيسه العِلم وكُتِبَ في ديوان السُعداء .

قال النبيّ(ص) خصلتان يُحِبُّهُمَا اللهُ عزَّ وجلّ، حسن الخلق والسخاء. أما الذي يبغضهما الله عزَّ وجلّ، فسوء الخُلُق والبُخل. وإذا أَرَادَ اللهُ بعبدٍ خيراً استعمله في قضاء حوائج المؤمنين. وقال أيضاً: التواضع لا يزيد العبد إلا رفعةً فتواضعوا يرفعكم الله. والعفو لا يزيد العبد إلا عزّاً فاعفُوا يعزّكم الله، والصدقة لا تزيد المال إلا كثرةً فتصدقوا يرحمكم الله.

٤- ترك الزينة. مِمّا أكده الشيخ الفاضل (ر) وجوب ترك الزينة ظاهرًا وباطنًا، فالزينة ذاهبة كالزبد الذي لا طائل منه، والظاهر منها هو ما يتزّين به الإنسان ويتحلّى به من ذهب وفضة، وكل شيء يُتخذّ تزيّنًا ويستعمل كالحَلَقْ والوشم، (عادات موروثة من الجاهلية) وما شابه.

والباطن منها أعمال الرِياء، وهي الأعمال المصطنعة، والمقصودة لظاهرها، ونَسَبَهَا الحديث الشريف إلى "الشهوات الخفيّة" من حبّ اطّلاع النّاس على العمَل من دون عقد نيّة الخير في الباطن، ويكفي الرياء وضاعَة أنه ينفي الإخلاص

وحقيقية الصّدق، وهذه في حد ذاتِها مَثلبة الدّين، وإبعادًا للنّفس عن جوهرِه، أعاذنا الله تَعَالَى من ذلك.

العمر رأسمال الإنسان

قال تعالى في الكتاب العزيز ﴿وَمَا يُعمَّرُ مِن مُعمَّرٍ ولاَ يُنقَصُ مِن عُمُرِه إلاَّ فِي كِتَابٍ إنَّ ذَلكَ علَى اللهِ يَسِيرٌ﴾[1]، فالحياةُ هبةٌ من الله لعبيدِه، وفُرصَةٌ لاكْتساب الخَير، وحمل الزّاد، وتحقيق مقاصد الإيمان بالحقّ. والعمرُ أنفاسٌ محدُودة كما قال تعالى ﴿ولَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾[2]، فلو تنبَّه الإنسانُ أنَّ الدّنيا دارُ ممرٍّ زائل لا دار مُستقَرّ ثابت، لأَشْفقَ من نفسِه مسارعًا إلى فِعل الخيرات، واغتنام الوقت الثمين – الّذي يُقال فيه إنَّه "رأسمال الإنسان" – للمبادرة إلى الفضائل، واستنهاض الهمَّة لتحصيل الجوهر الباقي بدلا من إضاعة الأيّام وتبديدها في عبث العرَض الفاني. والمرءُ النّابهُ المستنير بالعقل الطائع ينتهزُ الخير في عمره، أي يملأ به قلبه، محصّنًا نفسه من مخاطر الهوى وجموح الرّغبات، منكبًّا على تحصيل العِلمِ الّذي من شأنه أن

---

[1] [فاطر ١١].
[2] [المنافقون ١١]

يضيءَ لهُ سبُلَ الاستقامة التي تحميه من الوقوع والانزلاق في متاهاتِ المظاهر البائدات. وكم يحتاج الأبناءُ في عصرنا الحاضر إلى وعي هذا الأمر حقّ الوعي، إذ تحاصرُهُم الحياةُ المعاصرة بشتّى الوسائل (السمعيّة/البصَريَّة) المستعمَلَة غالبًا في اللَّهْو والغواية والإثارة الرَّخيصة التي تدفع بهم إلى استسهال ارتكاب فاحشة الزّنا، وما تستدرجُه هذه السّقطة الوخيمة من الانحدار في شَرَكِ الإدمان على إشباع رغبات مختلف الحواسّ بما ساءَ وضرّ وآذَى وأضاعَ الحياةَ الثّمينة بأبخس الأثمان وأحطّها شأنًا .

العمل بالنوايا الخيّرة

إنَّ مسلك تطابُق الظاهر والباطن، هو مسلكٌ يحرص المشايخ الأفاضل على اتّباعِهِ، وبالتالي تنفيذ كل ما يتم الوعد به، حتى لو كان الأمر يتعلّق بِهِم دون سواهم. بل إنَّ الصفوةَ تحرص على تطبيق النيّة الخيّرة دون إعلانِها أحيانًا .

وبهذا التوافق (في الحالتين) يصبح الفكر والنيّة، وعمل الجوارح متطابقين في نشاطاتهما، فيُطابق ظاهر الإنسان باطنه تمامًا، وهذا

أعلى درجات الترقّي، وعندها يتلاشى الظاهر والباطن، ويكون صاحب القول والوعد صادقًا حقيقيًا. وعلى قدر الهِمَم والجد والاجتهاد، ترتفع درجات الصالحين.

صعوبة العمل في الزمن الحاضر

"يأتي على النّاس زمانٌ القابض على دينه كالقابض على الجمر"[1].

إنّ القوى التي للروح في الذات الإنسانية هي قوى لا زمنية، بمعنى أنَّ جوهرها كامنٌ فيها كما في الماضي القديم، كذلك في الوقت الراهن، وهذا من العدل الإلهي وثبوت الحكمة. ولكلّ امرىء أن يختار بين أن يغذّي هذه القوى بلطائف العلم والعمل وفق ما يقتضيه الحقّ والعقل، أو أن يُهمل أمره – لا قدّر الله – منصرفاً الى حياةٍ منغمسةٍ باشباع حاجات الجسد ونوازع النفس الى الهوى.

لقد تفاقمت مصاعب سبُل المسالك العمليّة للنفس الانسانيّة، في زمننا الراهن، لاتّجاهها منحى الطريق الوعر الّذي يؤدّي إليه

[1] حديث شريف.

الابتعاد عن مسالك الطاعة والفضيلة. وبات، على العموم، من الصعوبة بمكان أن يجد المرءُ منفذاً الى لطائف التوحيد والمعرفة مع تطوّر منحى الانحلال الأخلاقي في كثير من مقاربات سوء استخدام وسائل الاتّصال والتواصُل الحديثة التي من شأنها أن تودي بالإنسان إلى مهاوي اللهو المؤذي وتبديد الوقت، والتي تسهّل الوقوع في أماكن الشبهة، وتدفع بالمرتكب دفعًا إلى ارتكاب المحرَّمات والمعاصي، وولوج مسالك الضياع في شتّى أنواعه، والانخراط مع معشر السوء المؤدّي إلى التورُّط في أسوأ العواقب الوخيمة والمهدّمة لكلّ أمل في مستقبل فالح يحلمُ به كلّ شابّ سويّ، ومن هذه الموبقات والرّذائل استسهال تعاطي المشروبات المسكرة وأصناف المخدّرات والإباحات الشهويّة، وما يسبّب ذلك من الوقوع في أسر الإدمان المذِلّ، والعبودية الآسِرة لعاداتٍ ضارة ومدمّرة لصحَّة الجسم والروح. ومن مأثور القول إنَّ " الطبع السليم يسترق" يعني لا بد من أن تتأثر النفسُ من أجواء معاشرها.

يسيرُ الإنسانُ في الزّمن الحاضر نحو المجهول، ويكفي دلالة على استرخاص المعنى الإنسانيّ في المزاج السائد ل"الحضارة الحديثة" أن نرى اهتمامًا فائقًا، ورعاية علميّة دقيقة، بهدف الحفاظ على فصائل حيوانيّة وأنسابها، في حين أنّ مسار المجتمعات البشريّة تشهد بشكل جامح انحلالا لتقاليد صيانة النواة الأساسيّة لبناء أيّ مجتمع والتي هي الأسرة، حتّى ليبدو لنا أن ثمّة اندفاعة في هذا السياق نحو أزمان الجاهليّة الأولى.

كلّنا نرى في حياتنا المعاصرة أنّ شرطَ النّجاح هو الكفاح. نرى ذلك في مقاعد الدّرس، وفي قاعات المحاضرات الجامعيّة، وفي مواقع النّخب العاملة في كلّ حقل، وفي المنافسات الرّياضيّة إلخ... كلٌّ يسعى إلى الفوز والفلاح مستهينًا بكلّ تعب وجهد ومشقّة وصولا إلى الأرَب الدنيويّ، فهل الوصول إلى رضى الله تعالى، والفوز بشفاعة رسوله، وامتلاء القلب بهذا النعيم الأبديّ في حضرة الحقّ، هو أقلّ شأنًا من مطالب الدنيا الفانية؟ حَاشَا الله تَعَالَى عن ذلك.

إنَّ مثَل الموحّد والموحّدة هو مثَل النّحلة العاملة المتنقّلة بين الأزهار الجميلة لاقتباس روح الطبيعة من رحيقها، فهكذا هي النّفس الخيِّرة الصّادقة، تتلقّى غذاءها من جليل المعاني، ولطائف العلم، ومصادقة الخيّرين والمفيدين، والإقدام على عمل الخير والمروءة. إنها الثقافة التوحيدية التي يجب أن تعمَّم، والصّلة الروحيّة التي يجب أن تُحترم. لهذا جاء الحديث الشريف انه يأتي زمان، القابض على دينه كالقابض على الجمر.

إنّ السّعي المخلص في دروب تحقيق علامة المؤمن هو السّبيل القويم إلى الفوز بالسّعادة الجوهريَّة التي لا فناء معها.

جعلنا الله تعالى من المستبصرين السالكين الموفَّقين برحمته وفضله ومنِّه وكرمه إنّه سميع مجيب، غفور رحيم.

الفصل السابع

الرِّضى

الرِّضى، في اللغة اختيار بلا إكراه، أو ترك الاعتراض، والتسليم لأمر اللهِ تَعَالَى، واستقبال القضاء بالامتثال، وقيل هو الثبات عند نزول البلاء. فالرِّضى والتسليم هما مسلكان ضد القهر والجبر، وهما مبدآن أساسيان لمبادئ الحرية والكرامة، مرتكزان على قاعدة التخيير، وهذا أعلى درجات سلّم ارتقاء الإنسان نحو معرفة الله عزَّ وجَلّ، إذ أنَّ الحقّ يُحرِّر.

الإنسانُ موجودٌ في العالَم. يرى ويسمع ويتذوَّق ويحسّ بما وهبه الله تَعَالَى من حواسّ وجسد. لكنَّه أيضًا يدرك ويفكّر ويتذكَّر ويتخيَّل ويحزن ويفرح وينعم ويشقى بما وهبه الله أيضًا من روح وعقل وبصيرة وقوى روحيّة ونفسيّة. إنَّ كثيرًا من الأمور في هذا العالَم

تبدو واضحة، أي أنَّ الإنسانَ يكتسب الكثير من البديهيَّات، التي لا تحتاج إلى برهان لإثباتها . ولكن، كلَّما نضج المرءُ في مستويات عدَّة، اكتشف أنّ البواطنَ في الطبيعةِ والكينونة الحيَّة على حدّ سواء تخفي الكثير من الأسرار والحقائق الخبيئة. ومن أجلّ تلك الأسرار التي يُمكن أن يعيها المرءُ هي السؤال عن معنى وجوده والغاية منه.

إنَّ الوعيَ الإنسانيّ لماهيَّة هذا السُّؤال هو أمرٌ جوهريّ اختُصَّ به الإنسان من بين كلّ الكائنات، وهو مرتبطٌ بالبحث عن مصير الفرد، وبالتالي، عن حرِّيَة خِياره في انِتقاء نمط العيش وطرائق السّلوك التي يرتضيها لنفسه في سياق حياته قبل أن يدركَه الموت.

إنَّ سبيلَ التّوحيد هو سفَرٌ إلى هذه المعرفة في ضوءِ نور الحقّ وهداية العقل الإنسانيّ ليكون للإنسان حياةٌ صالحة وانتقالٌ شريف إلى رحاب الله سُبحَانَهُ.

إنَّ المعرفةَ المنزَّهة عن الشّبهات هي إضاءةٌ جليلة على حضور العقل وما يكتنزه من إمكانات الارتقاء، ومعاني النّفس وقواها المتضادة، وعلى الجسم البشريّ الّذي هو في الواقع آلةٌ

مذهلةٌ لمعاينة الوجود إنْ سلم المرءُ من انتهاك استخدامه في غير المقاصد من وظائفه. كذلك، هي إضاءةٌ على لطائف الحكمة في صنع الكون، وعلى جليل دقائق حركته وانتظامها الثابت المدهش، وعلى ما استطاعه الطالبُ من استشعار أسرار وجوده البديع المتقَن.

يبقى أنَّ لتلك المعرفة ثمارًا يتوجَّبُ على الإنسان تحصيلها كي لا يذهب سعيُه سدًى، وأهمّها الوقوف عند الغاية من كلّ ذلك، والإقرار بالعجز عن الإحاطة الشاملة بكلّ شيء، والإيمان بأنَّ الوحدةَ المختصَّة بالخالق هي المُبدِع لعلَّة هذا الكون، وبأنَّ العدل والحقَّ والرَّحمة هي من صفاته التي لا يحيط بها إنسان، بالرّغم من أنَّه عزَّ وجلَّ منزَّه عن كلّ لغةٍ وصفة. فإنْ أحيا المرءُ روحَه بتلك المعرفة، واتَّصل بلطائِف حقائقها، واتّضح له بالعقل والقلب مقاصدها، امتثلَ لها، وجعلها الغرض الأسمى، وجهد في تحقيق معانيها بصدق وإخلاص قولاً وعملاً، فيُعيد الإنسان تسليم الأمانة الى صاحبها، ففي تسليم الروح جوهر الإيمان بالله، وفي تسليم

الجسد أشرف وأفضل المسالك، وفي تسليم المال خلاصة أفضل المعاملات في الدنيا، وفي الزواج وتسليم الولد أفضل معاملة مع الأسرة، فيكون بذلك سالكًا ببَركة الرّضى، ومغتبطًا بحقائق التّسليم، ومندرجًا في زمرة الّذين ﴿**رَضيَ اللهُ عنهُم ورَضُوا عنه ذلك الفَوزُ العظِيم**﴾[1]. أي رضي عنهم بطاعته ورضوا عنه بثوابِهِ، وهذا هو الدِّين بكمالِهِ.

بركات الرِّضى

أجمل الرِّضى هو ما يأتي ثمرةً من الإيمان القلبي الصّادق، والقبول بالإرادة التي أوجدَت نظام التَّوحيد. وأوَّل بركاته الشعور بالسَّكينة الداخليَّة، والاستقرار النّفسيّ، الأمر الّذي يحرِّر العقل من المؤّثرات السلبيّة للغضب والتذمُّر والنَّزق وما شاكَل ذلك من هذه الوثبات المؤذية لروح الإنسان.

[1] (المائدة ١١٩).

والرِّضى يُدخِلنا في حقل المحبَّة حيث ثراء النّفس واتّساع آفاقها . إنَّ المحبَّة هي الينبوع الّذي يروي الرُّوح بالخير، لأنَّ حقيقة المحبَّة طهارة داخليَّة يتمكَّنُ المحبّ معها من تلقّي لطائف المعاني، واستيعاب مقاصد إشاراتها، والارتقاء في مدارج المعرفة ما استطاع. والحب الحقيقي هو أن يبذل المرء جهده طواعية من أجل محبوبه، ويفضّله على كل ما عداه من ملك وأموال.

والرِّضى يوطِّدُ في القلب الثِّقةَ بفضل الله وحكمته، ويرسِّخُ فيه الثّباتَ على كلمة الحقّ وفِعل الخير، وذلك يبعثَ القوَّةَ في الرُّوح لكي تواصلَ بيقينٍ مستنير سعيَها في سلُوك السبيل المستقيم الّذي به صلاحُها وفلاحُها وسعادتُها التي لا تقوى عليها كلّ العواصف.

إنَّ الرِّضى نعمةٌ كبرى حين يقع القدرُ بأحكامه، سرّائها وضرَّائها، إذ أنَّه يثبّتُ قلبَ الإنسان في معنى الرَّحمة والحكمة الإلهيَّيْن في كافَّة الأحوال، وهذا بابٌ عظيم في اكتساب الأجر والثَّواب، لارتقاء الرُّوح عن عوارض العالم المحسوس نحو الجوهر

المعقول، فسبحان من هي حكمتُه وعدله. قال تَعَالىَ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾[1] وقد قيل لرابعة العدوية متى يكون العبد راضيًا ؟ قالت: إذا كان سروره بالمصيبة مثل سروره بالنّعمة.

والرِّضى شرط جوهريّ لسلوك الموحّد في حياته الروحيَّة والاجتماعيَّة، إذ هو مرتبطٌ بالكثير من الأمور التي تدخل في باب العبادات، كالرِّضى بموجبات الدّين وفرائضه، والرِّضى بقضاء الله تَعَالىَ وما شاكل ذلك. وأيضاً في باب المعاملات كالرِّضى في تبعات البيع والشراء، والأخذ والعطاء وغيرها، ومنه الرِّضى في اتّباع شروط الزواج بما يوافق الحقّ ويرضي إله الخَلق.

---

[1] [البقرة ١٥٥ــ١٥٧].

الفصل الثامن

التَّسليم

إذا كان الرِّضى هو القبول والإقرار بقواعد نظام التوحيد التي غايتها السعادة الإنسانية بمعناها الأمثل والأبقى، أي الاغتباط في يُمن الطاعة والقبول بما تقتضيه، فإن التسليم هو الثمرة التي يقدّمها الإنسان بأعماله وقلبه وجوارحه وماله وذريته دلالة على الصدق والاستقامة والإخلاص للحقيقة.

وإذا كان الرِّضى مثل الشَّجرة التي غرسناها في حقل الطاعة، فالتَّسليم بمثابة ثمارها التي نقطفها بعد إتمام واجب العناية والمحافظة والثبات. وإن كان الرِّضى هو قبول بالحقيقة ونظامها، فإنّ التَّسليم هو عملٌ بمفترضاتها والتزامٌ مسلكيٌ بما تمليه من واجبات لا يثمر كمالها إلا بالإخلاص والوفاء والعمل.

بركات التّسليم

النّفسُ المستنيرةُ الرّاضيَةُ هي نفسٌ تعرفُ طريقَها المستقيم في حقل الفعل والسّلوك. وهي قابلةٌ للحقّ ليس في ذاتها فحسب، بل بما يظهر منها من أعمال صالحة، وما تبادرُ إليه من أفعال الخير والفضائل المكرمة، وما تثبت عليه من حفاظ على الأمانة بروح الإخلاص والمحبّة.

والتّسليمُ هو حصنٌ للذّات تلوذُ به لأجل حمايتها وصونها من كلّ أشكال الغواية والانخداع والانحلال. فإن سلّم المرءُ جوارحَه، وأبقاها بعيدةً عمّا يؤذي قلبَه، فلا يُشوّش روحه بأنواع اللغو والهرج والتّفريط. وإن سلّم فؤادَه، حرصَ أشدّ الحرص على أن يُبعدَ عنه كلّ شبهةٍ أو حيرة، وأخذه إلى عِلم الحق، وأنوار العقل، ولطائف المعاني التي هي الغذاء المحيي للروح العاقلة. وأبقاهُ سليمًا من الأفكار الملتبسة، والاعتقادات الغامضة، والميول الخدّاعة التي تزيّنُ للفردِ ارتكاب المعاصي والانحرافات، وإن سلّم جسمه، يعني أن يؤدّي فيه أمانة الغاية التي وُجدَ من أجلها كما سبق الشرح في فصل الأمانة.

وإنْ صحَّ التّسليم بالمعاني المذكورة، كان المعراجَ الأمثل الّذي يرتقي به الموحّدُ كي يصلَ إلى السّعادةِ الجوهريَّة إذ يحقّق الغايةَ من إنسانيَّته، وهذا أجلّ المطلوبات للعاقل الّذي ألهمه الله تعالى نعمةَ الهداية إلى الخير.

السَّعادة الحقيقية

السَّعادةُ مطلبُ كلِّ إنسَان، وهيَ عزيزةٌ وليستْ سهلةَ المنال. ومردُّ ذلك إلى طبيعةِ الحالة الّتي يحقّقُها الإنسانُ ليشعرَ بحرّيَّةِ القلب، ونعمةِ الرّضى، وجمالِ الوُجود، وكلّها من هبةِ السَّعادة الّتي هي حقيقةٌ من حقائِق الإمكان الإنسانيّ في ذواتِنا.

يتوجَّبُ أوّلاً التّمييز بينَ السّعادة الآنيَّة المتأتّية من المَلذّات الحسّيَّة على أصنافِها من جهة، وبينَ مشاعر الغِبطة العميقَة النّاتجة عن اطمئنانٍ رُوحيّ، تُغذّيه استكانةُ النّفس في معاني الخير والفضيلةِ وجمال الحقّ من جهةٍ أُخرى. إنّ اللحظات المُبهجَة الّتي يحسّ بها الجسدُ نتيجة إشباع الجوارح لا يُمكِنُ أن تمدَّ لها جذُورًا في عمق

الرّوح وصُولاً إلى إدراك كُنْه السّعادةِ، ذلك لأنّها لحظات زائلة وبائدة لتعلّقِها بالجسدِ الزائل البائد . إن اللّذة التي تنطلق من الجسد، هي لذة فانية لأن الفرع يتبع الأصل، وعشق الصورة يزول بزوال الصورة. وإنْ جمحَت تلك الجوارح في نيل أغراضِها إلى ما يتعدّى الحدّ، باتت مؤذِية لطبيعة النّفس إذ تُقوّي فيها طبائع الهوى، وتُضعِفُ فيها طبائع الخَير، الأمر الّذي من شأنه أن يُودِي بها إلى قطيعةٍ مُوحِشة مع حقائق الوجود، وبالتّالي، إلى مهاوي الجهل والعدم.

إنّ الجُذورَ الحيَّة للسّعادة، بمفهومِها الجوهريّ العميق، المُوصِلة إلى الغايةِ الحقَّة، وهي الرؤية والمشاهدة (خلاصة مفهوم مذهب التوحيد)[1] كامنةٌ في لطائف النّفس ذاتِها، وهو استشعار وجود خالِقِها في سرها وجهرها، لأنه لا يخلو منه مكان سُبحَانَهُ وتَعَالَىَ، فإذاَ أحيَاها الإنسانُ، وحقّقَ معانيها بالمعرفةِ والعمل الصّالِح، يكون قد رسَّخ روحَهُ في حقل السّعادةِ في الدنيا والدّين، ليقطفَ من ثماره ما شاءَ له القطاف. والجوهرُ الإنسانيّ الخالِد مستقرٌّ في النّفس

[1] كما تمَّ شرحها في كتاب مشيخة العقل: "السبيل الى التوحيد".

الناطقة، فإذا ما لاقى الأنوار المشرقة من العُلوم النيّرة، والأعمال الفاضلة، تلألأَ وأذاقَ النّفسَ مشاعرَ الغِبطةِ السَّنيَّة الّتي تمنحُ صاحبَها إحساسَ الغِنى والاكتفاء. ومن الضّروريّ أن تكون تلك المَعارف مُشرَّفةً باقتباسِها مِن نور العقل الطّائع الّذي هو أصل الخَير ونبعه الصّافي. يعني، أن تكُونَ فائضةً من لطائف معاني الرِّسالات السَّماويَّة، ومُكتنِزةً بأنوار التّوحيد.

إنّ امتثال[1] الإنسان لِحكمةِ نظام الوجود، وسعيَهُ الدّائم لُمجانسَة معاني الخَير الّتي هي الغاية منه، يحصّن روحَهُ من كلِّ خداع هدّام، ويرقى بها إلى مقام الشّرَف والكرامة الإنسانيَّة الحقّة، وهذا هو عين السّعادة للمرءِ في الحياةِ وفي المصير.

إن السعادة الحقيقية هي حالة خالدة لأنها متّصلة بكمالات العقل المستنير بالتأييد الإلهي، بقدر إخلاص المرء، وثباتِه، وإخلاصِه، ولزوم حدّ الطاعة، وبهذا المعنى تنتفي فكرة الفناء المرتبطة بالزمان.

---

[1] الخضوع.

خلاصة

نورد هذه الخلاصة، استبراكًا من مواعظ السيّد الأمير (ق)، الذي يبقى في تراثنا الأثيل منارة هدى استمدّت نورها من شمس الحقيقة الخالدة، وعلى الموحّد السعي إلى مطالعتها والامتثال لها سرًا وعلانية كي يبقى في بركاتِهَا . فمن يتوجّه الى المولىَ الكريم، فهو الغنيّ حقًا بعد إخلاص النيّة:

الرَّبُّ سُبْحَانَهُ مُعِيْنُ مَنْ تَوَجَّهَ إِلَيْهِ. وَمُنَجِيّ مَنِ اسْتَنَدَ عَلَيْهِ. لأَنَّهُ حَاضِرٌ فِي كُلِّ مَكَانٍ وَزَمَانٍ. وَهْوَ عَادِلٌ عَالِمٌ حَاضِرٌ. فَمَا مِنْهُ عَاقَةٌ فِي تَوْفِيْقِ العَبْدِ . وَإِنَّمَا العِلَّةُ فِي عَدَمِ التَّوْفِيْقِ هُوَ مِنْ قِبَلِ العَبْدِ . لا مِنْ قِبَلِهِ. لأَنَّ العَبْدَ إِذَا جَرَّدَ نَفْسَهُ مِنَ الشَّوَائِب وَصَفَّاهَا مِنَ المَعَائِب. وَتَوَكَّلَ عَلَيْهِ حَسَبُ التَّوَكُّل. وَطَرَحَ نَفْسَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِلاَ حَوْلٍ وَلاَ قُوَّةٍ. فَهْوَ يَرْحَمُهُ وَيُرشِدُهُ مِنْ كُلِّ نِدٍّ . وَيَمُدُّهُ وَيُسَدِّدُهُ وَيُعِينُهُ. لأَنَّهُ مَعَهُ حَيْثُ كَانَ. وَمَعْ وُجُودِهِ قَادِرٌ عَلَى الإِطْلاَقِ. وقد

نَرَى كَثِيْرًا مِمَّن انْقَطَعَ إلىَ أَحَدِ مُلوُكِ الدُّنْيَا يَظْهَرُ آثَارُ ذَلِكَ المَلِكِ عَلَيْهِ. وَانْعَامُهُ وَافْضَالُهُ إِلَيْهِ. فَكَيْفَ مَنْ يَنْقَطِعُ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ الملك العَلاَّمِ. الكَرِيمِ المَنَّانِ القَادِرِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ. فَذَاكَ حَالُهُ اجَلُّ مِنْ حَالِ كُلِّ اَحَدٍ. كَمَا قِيْلَ إِنَّ كَرِيْمَ الحَيِّ يُكْرِمُ ضَيْفَهُ، فَكَيْفَ الكَرِيْمُ الحَيُّ وَهُوَ قَدِيْرٌ.

ولاَ مَطْمَعٌ فِي الوُصُوْلِ إِلَى البَيْتَ الاَّ مِنَ البَابِ. وَمَنْ قَرَعَ البَابَ وَلَجَّ وَلَجَ. وَمَن جَدَّ وَجَدَ. فلا يَقْرَعُ البَابَ قَارِعٌ بِخَالِصِ سَرِيْرَتِهِ. إِلاَّ فُتِحَ لَهُ وَشَاهَدَ العَظَمَاتِ. سُبْحَانَ مَنْ وَفَّقَ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَى هُدَاهُ. وَجَذَبَهُم. بِنِعْمَتِهِ إِلَى عُلاهُ. وَجَعَلَ السُّلَّمَ إِلَىَ ذَلِكَ كَمَالَ صَفَاءِ العَبْدِ وَتَقْوَاهُ. وَمَنْ المَعْلُومِ الصَّحِيحِ أَنَّهُ لاَ يُتَرَقَّى إِلاَّ بَعْدَ التُّقَى. ولا يَنْطَبِعُ فِي جَوْهَرَ العَبْدِ مُشَاهَدَةُ الخَلاَّقِ. إِلاَّ بَعْدَ تَهْذِيْبِ الأَخْلاقِ. وَتَهْذِيْبُهَا هُوَ انْصِرَافُهَا عَنْ كُلِّ مَا سِوَى اللهِ تَعَالَى. فَإِذَا ادْبَرَتِ النَّفْسُ عَنْ مَلْذوْذاتِ الدُّنْيَا وَشَهَوَاتِهَا. وَالْكِبرِ وَالحَسَدِ وَالرِّيَاءِ والنَفَاقِ والتَّجَبّرِ. وَطَوْلِ الأَمَلِ وَالمُحَرَّمَاتِ. فَحِيْنَئِذٍ يُرجَى لَهَا بَلْ يُتَحَقَّقُ انَّهَا مِنَ السُّعَدَاءِ الفَائِزِيْنَ فِي الدُّنْيَا والدِّينِ.

ومَنْ مَنَحَهُ اللهُ بالقبول وَالتَّرَقّي والعُرُوْج إلىَ حَدِّ الإنْسَانِيَّةِ. كَانَ مِنْ ثَمَرَةِ أَفْعَالِهِ العَقْلُ والحِلْمُ وَالسُّكُوْنُ وَالرَّزَانَةُ وَالرُّجْحَانُ. وَالْعَفَافُ وَالصِّيَانَةُ وَالنَّظَافَةُ وَالطَّاعَةُ وَالطَّهَارَةُ ومَكَارِمُ الأَخْلاق. وَالزُّهْدِ فِي المطَالِبِ الدُّنْيَاوِيَّةِ. والخَوْفُ وَالمُرَاقَبَةُ والثَّبَاتُ عَلَى الأَوَامِرِ. وَالتِزَامُ النَّواهِي. والصَّبْرُ والاِحْتِمَالُ وَالغُضُوُّ عَنْ بُلُوغِ الأَغْرَاضِ. والانبعَاثُ بِكُلِّيَّةِ الجَهْدِ فِي التَّطَلُّعِ إلى رِياضَاتِ العُلُوْمِ البَسِيْطَةِ وَالتَّلَمُّحِ من إشَارَاتِ مَضْمُوْنِ مَعَانِيْهَا وَالْمُبَالَغَةِ بِأوامِرِهَا وَالانْتِهَاءِ عن نَوَاهِيْهَا . وَالبَحْثِ وَالاسْتِكْشَافِ عَنْ أَصُولِ مَبَانِيْهَا . القَائِمَةِ بِالفُرُوْضِ الوَاجِبَاتِ. وَالسُّنَنِ المَشْرُوْعَاتِ. فَهَذِهِ دَرَجَةُ الإِنْسَانِ التِي تَبِعَهَا السَّلَفُ الصَّالِحِ مِنْ أَهْلِ الفَضْلِ والاخوانِ.

ملحق خاص

فضائل يوم الجُمعة

الجُمعةُ يومٌ مُباركٌ كرَّمَه الذِّكرُ الحكيم بسُورةٍ وردَ فيها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[1] . سُمِّيَ بذلِك لاجتماعِ النّاس فيه للصّلاة، وما يعنيه ذلك من صلةٍ في كلمةِ التّوحيدِ، ومشاركةٍ روحيَّةٍ في رحَابِ الحقّ، وائتلافٍ قلبيّ في طاعةِ الله العفوّ الرّحيم.

يرسخُ معنى الجُمعة في البيئة التّوحيديَّة في محلّه الجليل من القلوب والخواطر. ويبدأ هذا اليوم عندهُم من غروب الخميس بما يسمُّونه "ليلة الجمعة". فينصرفُ النابهون عن أعمالِهم الدّنيويَّة، ويقصدُون مجالس الذّكر للصّلاة والتّلاوة وحثّ الهمَم على طلب ما يبقى، والزّهد في ما يفنى. ويتحلَّقُ المريدُون حول السبّاقين في الفضل طلبًا للإفادة والاستنارةِ من لطائف الوعظِ والحِكَم، مستشعرينَ بركَةَ الوقت الّذي تتردَّدُ فيه الأنفاسُ عابقةً بذِكر الله، ومسكونةً بمشاعر الافتقار إلى الصّفاء والأُنس، حاملةً ألفاظ (أو عبارات) الابتهال والتّضرُّع والأدعيَة بما تُيسّرُه المنازلُ من رياضةٍ وتوفيق.

---

[1] [الجمعة ٩].

يدخلُ الموحِّدون من تلك الليلة الزّاهرة في ما يُشبهُ حالة الإحرام الّتي تشمل جوارحَهُم وقلوبَهُم ونواياهُم. ويستمرُّ ذلك حتّى ظهر يوم الجمعة ذاته، إذ يتجمّعون فيه منذ الصّباح في أماكن الذِكر، لا تفتر ألسنتهم عن التِلاوة إلا بعد انقضاء الواجِب الّذي يحافظون على أدائه وفق خطّة السّلف الصّالح.

يحثّ الثِّقاتُ من الأفاضِل على الطّاعةِ في كلِّ حين، لكنَّهُم يعتبرون الانقطاع عن حلقة الجمعة في غير اضطرار صَدعًا في مسلكِ الطّالب، ذلك أنَّ حرمَة يوم الجمعة راسخَة منذ القِدم بما تعنيه من انصراف عن مشاغل الدّنيا، واستذكار الآخِرة، والانكباب على ما من شأنِه إحياء القلوب، وتغذية طبائع الخَير في النّفس المتيقّظة، ليكون ذلك باعثًا لها على التمسّك بالفضائل، وعلى دوام السلوك في سبُل الهداية والرّشاد.

إن تطبيق الإِحرام في فضائل يوم الجمعة واجبٌ على عموم أبناء الطائفة، وليس فقط على الملتزمين.

الاعياد الدينيَّة

الأضحى

جاء في سورةِ الفجر ﴿وَالْفَجْرِ* وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾[1]، قال البيضاويّ "عشر ذي الحجَّة، ولذلك فسَّرَ ﴿الْفَجْرِ﴾ بفجر عرفة، أو "النحر"، وقال الطبري "عُشر الأضحى".

ففي اليوم العاشر من شهر ذي الحجة، يحتفل المُسلمون عامةً والموحّدون خاصةً بعيد الأضحى تذكرة باستعداد النبي إبراهيم(ع) للتضحية بابنه إطاعة لأمر الله وما جرى له كرامة متمثلة بقوله تَعَالَى: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾[2].

لذلك يكونُ "عُشر الأضحى" هو المناسبة التي يستذكرُ فيها الإنسانُ الموحِّد حقائق الرِّحلةِ في التوحيد التي يتوجَّبُ أن يكونَ في سياقها أصْلاً. فيستشعرُ حقائقَ الإحرام في كلِّ يومٍ منها. ويجدِّدُ العهدَ بالتيقُّظِ الأرقى إلى وجوب الثباتِ في نقاءِ النيّةِ والتزام القصْد. ويستعيد في فكره معنى قدومه على دلالة الارتواءِ من لطائف العِلم، والوقوف عند فسحة المعرفة مترقّبًا قيامة الحقّ، وصولاً الى العيد الَّذي يُدخِلُهُ في رضى الله سُبحَانَهُ وتَعَالَى. إنَّ ارتباطَ المرءِ بالتزامات هذه الحجَّة العظيمة، وهذا الرِّباط الطّاهر، ارتباطًا معزَّزًا بالإخلاصِ والوفاءِ

---

[1] [سورة الفجر ١-٢]
[2] [الصافات ١٠٧].

وحِفظِ الأمانة هوَ في عين ذاتِه نحرٌ لكل ضدِّيَة، فمن دون هذا النَّحر لا يصِحُّ توحيد .

والموحّدون يُحرمُونَ إذا أَهَلَّ هلالُ ذي الحِجَّة إحرامًا حقيقيًا على سبيل التَّوحيد، فيُحيونَ الليلَ، ويستغفرونَ في الاسحار، ويجاهِدونَ قدر استطاعتهم على أن تكونَ أرواحُهُم قاصدةً وجهَ ربّها الرَّحيم، وجوارحُهُم نقيَّةً من المعايب والآثام، ونواياهُم صافيةً لاستكمال معنى التضحية، وهو تسليمُ الروح والجسم والمال والولد، وما ملكت اليد إلى المولى الكريم ليكونَ عيدًا زاخرًا بمعنى توحيد الله دون شِركٍ أو خلل.

لذلك، فإنَّ الليالي العشر هي ليالي إحرام استنادًا لما سبق ذكره، بمعنى تهذيب الجوارح (العين والأذن واللسان واليد والرِّجل والبطن والفرج) من كلِّ عملٍ فعليٍّ او فكريٍّ ظاهريّ أو باطنّي، يؤدّي إلى إلحاقِ الأذى الرُّوحي بالنفس، فيشوّش على صفائها، ويميل بها الى طريقة حياةٍ حسّيةٍ عضويةٍ استهلاكيةٍ من دون إعطاء البُعد الرُّوحيّ الأهميَّة اللائقة به.

إن مجتمع الموحِّدين الدّروز بكل فئاته يترقَّب قدوم عيد الأضحى المُبارك وتدبّ حركة غير اعتيادية في التحضير لقدومه، حيث تتّم اللقاءات والزيارات والتهنئة المتبادلة، ويتوجَّه العديدُ منهم نحو المجالس والخلوات لسماعِ التّلاوة المُباركة والمذاكرة الدّينيّة استشعاراً بقدوم العيد الكبير.

قَصْدُ البيت العتيق: والحج لمن استطاع إليه سبيلاً

الحَجُّ هو القَصدُ، والقَصدُ هوَ "الاعتزام والتَّوجُّهُ والنّهوضُ نحوَ الشَّيءِ على اعتِدال"، وهو طقسٌ دينيّ قديم، نقَّاهُ الإسلامُ الحنيفُ من مخالفات الوثنيَّة، واستخلص فحواه من قصَّة النبيِّ إبراهيم(ع) وابنه الذَّبيح، كما ذكرنا، وجعلهُ فرضَ عينٍ له شروطُه ومناسكه. ومِحوَرُ مقاصده هو الضَّحيّة التي يتوجّب تقديمُها إلى الله سبحانه وتعالى قربانا إليه، ودلالةً على طاعتِه، وإثباتا دامغًا لاستِعدَاد المخلوق للتَّخلّي عن جَميع ما يملكُه مِن متَاع الدُّنيا ومقتنياتها تلبيةً لنداء الحقّ.

إنَّ الدّخولَ في معاني الفريضَة العقائديَّة والدينيَّة توجبُ عدم التوقُّف، فقط، عند الفِعل العمليّ لأداَء الشَّعائر المعروفَة، بل توجبُ حتمًا تأمُّل غاياتها ومقاصدها الرُّوحيَّة، أي النفاذ إلى أفُقٍ روحيّ رَحْب في عمق لطائف المعاني التي بها حياة الرّوح الإنسانيَّة وكمالُها، شرط تحقُّقها عقليًّا ومعرفيًّا ومسلكيًّا في الرِّحلةِ الشَّريفةِ نحو وجه الحقّ.

والموحّدُ مرتحِلٌ على الدوام باتّجاه المسلك الأرقى نحو الخير الأسمى. وهو في هذا الارتحَال يحصّنُ نفسَه من كلّ أخطار الضّياع في الدّرُوب الهامشيَّة التي تغرّر به للابتعاد عن نهج الصَّواب والفلاح. والرُّوح عندما تعرفُ وجهتَها إلى أصلها اللطيف، فهي تسكن بيتَ المعرفة، وتسعى سعيًا دائمًا، بمحبَّةٍ وإخلاص وثقةٍ بالوجود، إلى المضيِّ في طريقها الواضح المُنير، وترتوي من ماء العِلم الَّذي

يفي بحاجة الطّاقة الرُّوحيَّة إلى التَّحقُّق. عندها، يضحِّي الإنسانُ بالسَّعادات العابرة العَرَضيَّة الناتجة عن الإفراط ليصلَ إلى سعادةٍ حيَّة ثابتة أصيلة.

عيد الفُطر المُبارك

هو أوَّل يوم من شهر شوال الَّذي يأتي نهاية شهر الصوم وهو رمضان المُبارك. يتوجَّب على الموحِّد التقيّد بآداب هذا الشهر الفضيل.

رأس السنة الهجرية

مناسبة رأس السّنة الهجرية وبدء التاريخ الإسلامي في أوَّل شهر محرّم من السنة القمرية لكل عام. وسبق أن أشرنا إلى فضيلة أول محرَّم.

يُحيي الموحدون هذه المناسبة بالواجبات الدينية في خلواتهم.

الأماكن المُخصَّصَة للعِبَادَة

"المجالس"

المجلس عند الموحّدين الدروز بيتٌ أفرد للعبادة وللقيام بواجبات الذِّكر والصلاة. يجتمع فيه طالبو الحقّ والسالكون مناهج الطاعات لأداء الواجبات والفرائض الدينيّة، وتلاوة وتدارس كتاب الله العزيز، استجابة لأمر الله عزّ وجلّ.

يتولّى شؤون المجلس مدبّرٌ (سائس) (*) وصفه السيّد الأمير (ق) بالشيخ الرئيس، ومن أبرز واجباته الرفق بالاخوان، وحفظ جانبهم، ولم شملهم، ومسك نظامهم، وحسن التدبير والسهر على القيام بالرّياضات الروحيَّة، وفهم مقاصدها، والمحافظة على قواعد الأمر والنهي. وبالإجمال، العناية بتغذية النفوس في طلب الحق وفقًا لما تقتضيه الأصول والتقاليد الشّريفة، وإقامة الحد والقصاص عند اللزوم.

المجلس ركنٌ أساسيٌ في كل بلدة أو محلة، له شروط وآداب، ودورٌ هام في انتظام المؤسسة الدينية معرفةً وسلوكًا.

(*) يعيّن من قبل مشيخة العقل، بناءً على اقتراح مشايخ البلدة أو المحلة، ويمكن تشكيل لجنة شورى لهذه المهام عند الحاجة.

"الخلوات"

الخلوات عند الموحّدين هي المساجد في الأصل. وقد أشارت المصادرُ التّاريخيّة الموثوقةُ المتعلّقةُ بسيرةِ السيّد الأمير التّنوخي(قَ) أنّه قد "أمرَ بعمارة المساجد في القرى وإقامة الخطب فيها كلّ يوم جمعة" . لكنّ "طبائِع المسلك" عند الموحّدين، أي نظرتهم الوجدانيّة والعقليّة، نَحَتْ في ذِهنيّة "العقّال" مَنحى التورُّع. فإنّ ما يُميّز "الخلوات" هو إقامتها عمومًا في أمكنةٍ نائيةٍ عن العمران قدر المستطاع. ولا تُولي إنشاءاتها شأناً لمظاهر هندسيّة عامرة، بل تنحو نحو الاقتصار على الضرورة الطبيعيّة لإقامة الصّلاة، وغايتها سبر أغوار النّفس، وليس راحة الجسد بالمعنى الغائي للمسلك.

الخلوات، هي أمكنة لتحقيق فضيلة النّفس بترويضِها وتهذيبها والارتقاء بها إلى الغاية الجليلةِ التي من أجلها استحقّت الوجود . مِمَّا يجعلُ من الخلوات مقاماتٍ في حضرة الحقيقة. وإذا ما أدركنا كَم هوَ الدنيويّ كاسحٌ لحواسّنا الظاهرة، وملوّثٌ لإحساساتنا الباطنة، ومهدّدٌ لإمكانات تحقُّق خصال الخَير الجميلة فينا ، لَعَلِمنا عِلمَ اليقين، كم أنّ تلكَ المواضع الهادئة هي في جسدِ المكان بمحلّ القلب الحيّ فيه. إنّه، بوجود تلك الخلوات، تصيرُ البرَكةُ – أي الفضيلة – أُنسًا يسعى بالخَير بين النّاس. وهذا لبُّ الحضارة.

هذه الخلوات أماكن عبادة خاصّة يقصدُها الموحّدون للدّرس والسّعي إلى رياضة النّفس في حقول المعنى، وللاجتماعات العامة في العديد من المناسبات الملائمة.

المزارات

جاء في الذّكر الحكيم ﴿**وإذ جعلنا البيتَ مثابةً للنّاس وأمنًا واتّخِذوا من مَقام إبراهيم مُصلًّى وعَهِدنا إلى ابراهيمَ وإسماعيلَ أن طهِّرا بيتي للطّائفين والعاكِفين والرُّكّع السُّجُود**﴾[1]، وسواء أكان المقصودُ بالمقام موضعَ الحجر الذي فيه أثرُ قدمِه، أو البيتَ كُلَّه كما ذهبَ بعضُ المفسِّرين، فإنَّ المعنى يستقرُّ دلالةً على تعيين مكان مبارَك ليكونَ مرجعًا للنّاس، ومجمعًا لهم، يثوبون إليه ملبّين الدَّعوة، قاصدِين وزائرين، فيثابون بما يتقرّبون به إلى الله تعالى من أعمال الطّاعة والتبرُّك والبرّ. وفي هذا السِّياق المذكور نقفُ على معنى المقام الدّينيّ بإطلاق.

"المقامات" عند الموحِّدين

تُبنى "المقاماتُ" لغايات روحيَّة في المقصد الأسمى، ولغايات اجتماعيَّة معقودة حولَها، ومرتبطةٍ بها، تعبيرًا عن حاجةِ المجتمع إلى الارتباط بالقيَم والفضائل والأخلاق الرَّفيعة التي بها تتوطَّدُ أُسُسُه الرّاسخة جيلاً بعد جيل.

ويُسمَّى "المقامُ" أيضًا "مزارًا"، من حيثُ أنَّ النّاسَ تقصدُه وتزوره تبرُّكًا وطلبًا للدُّعاء والتَّضرُّع والصَّلاة تعبيرًا عن تمسُّكِها بأهداب الفضائل الأثيلة،

---

[1] [البقرة:١٢٥]

وارتباطها الرُّوحيّ برموز الاستقامة والصَّلاح، وتوسُّلا في هذه الفسحة المباركةِ إلى وجه الله الكريم استغفارًا وتوبةً وعودةً إلى استلهام عفوه ومنّته عليهم بالرَّحمة والتَّوفيق، كما يقصدُه المؤمنون لإحياء سهرة ذكرٍ وتلاوةٍ من آيات الله البيّنات.

ولكلِّ "مقام" تاريخُه وقصَّتُه المرتبطة إمَّا بقَصصِ بعض النبيّين، وإمَّا بحياةِ أحد الأعيان الأفاضل الثّقات، وإمَّا باحتواء تُرْبته رفاتَ أحدِ الصَّالحين المشهودِ لهُم بالثَّبات على قواعد الأمر والنَّهي والفضيلة في حياته.

ومن المقامات القديمةِ العامّة في لبنان "على سبيل المثال لا الحصر"، مقامُ "النبي أيّوب"(ع) فوق حُضنِ جبلٍ عال مشرف على بلدة نيحا/الشوف يُذكّرُنا بفضيلة الصبر ونعمة الرضى والتسليم. ومقام "الستّ شعوانة"(ر) في البقاع الغربي، التي تذكرنا بعُبّادِ المغاور والكهوف الذين تركوا مباهجَ الدنيا وفِتْنَتِها وعزموا على رحلة الإيمان والتوحيد.

ومن المقامات التابعة للموحّدين في لبنان مقامُ " السَّيّد الأمير جمال الدّين عبد الله التنوخي"(ق) في بلدة عبيه، وهو العالمُ العامل، والمصلحُ الاجتماعيُّ الكبير، والشَّخصيَّةُ التي ارتقت إلى تراثٍ وطنيّ حيث عَدَّهُ بعضُ المؤرّخين علامةً مشرقةً في فترة عهودٍ مظلمةٍ في تاريخ لبنان. ويحظى هذا المقامُ بموقع أثيل في قلوب الموحّدِين، ويُعتبَرُ من الأبنية التراثيَّة الجميلة.

وتضمُّ بلدةُ عين عطا في وادي التّيم مقامَ الشيخ الفاضل(ر)، وهو الشّخصيةُ الدينيَّةُ التي تعتَبَرُ من حيث منزلِتها الرّوحية تاليةً لمنزلةِ الأميرِ السيّد عبرَ القرون الخمسة الأخيرة. ويُعتبَر مسلكُ الشّيخ الفاضل نموذجًا يُقتدى في التّواضُع والزُّهد والعبادة والعِلم والمعرفة، مع العلم أن الشيخَ الفاضل تنقّل خلال حياته الى أماكن أخرى كـ"كوكبا" و"شويا"، ومقام النبي شعيب(ع) في حطين الذي يُجسّد رمزًا لتجذّر الموحدين في تراب فلسطين، والذي يجمع في رحابه المعروفيين يرتلون آيات الكتاب الكريم. ومقام النبي هابيل (ع) في سوريا.

وتُشكّل **النذور** شكلاً من تقوى المؤمنين في التعبير عن تعلّقهم القلبي والروحي بالرموز الدينية. وعند الموحّدين، هو التزام من الموحّد تجاه خالقه عند حصول أمر ما، أو ترقُّب أمر ما، بتنفيذ ما أضمرهُ لوجهه الكريم، وغالباً ما يكون تقديم المال. وفي الحقيقة، فإنّه في هذا العصر المغمور بنوازع المَيْل إلى المادّة والأنانية، تبدو هذه الأماكن، الأنيسة بمعانيها ورموزها، واحاتٍ خضراء يانعة لكلِّ معنى إنسانيّ راق.

رايةُ الموحِّدين

الرّايةُ التي تظلِّلُ القومَ هي "علامةٌ على اجتماع كلمتهم، ودلالة على اتّحادِ قلوبِهم"، وقد اتّخذها الموحّدون الدّروز عبر التّاريخ بهذا المعنى. والرّايةُ هي العَلَمُ يجتمعُ إليه الجُندُ أساسًا، وما تحرَّكَ الصّحابةُ في بعثةٍ إلاّ تحت رايةٍ أو لواء بأمر النبيّ(ص). ولكن، يتوجَّب العودة باختصار إلى بعض المفاهيم الفكريَّة عندهُم، سبيلاً لفهم الرّموز التي ميّزت رايتَهُم.

يحتاجَ الإنسانُ، العاجزُ عن إدراكِ المُطلَق، إلى فهم الأسبابِ التي من شأنها أن تكون استدراجًا له إلى حقيقة المعرفة. ويتبيّنُ منَ الآية القرآنيّة المباركَة الأساسَ الإدراكيّ لتلك الأسباب في قولِه تعالى ﴿**إنّما أمرُهُ إذا أرادَ شيئًا أن يقولَ لهُ كُنْ فيكُون**﴾[1]، أي هناك أمرُ الله، وإرادته، ومشيئتُهُ، وكلمته، وسابق الفعل، وتالِيه، وهذه مداركُ عقليَّة متعلّقة بحقائق خلق الوجود الّذي تبعه بعث الرُّسُل بالرّسالات السّماوية ومضامينها المرتبطة بالتّوحيد والأمر بالمعروفِ والنَّهيِ عن المُنكَر.

ترسّخت هذه المفاهيمُ المعرفيّة في المجتمع الدّرزي بشكل عام، وعبّروا عن هذه المدارك بواسطة نسبتها إلى ألوان ميّزوا منها الأخضر. ولعلّ هذا التّمييز من أثر قرآنيّ كما جاء في الآية الكريمة الواردة في سياقِ وَصْف حَال الأبرار في الجنَّة ﴿**عَالِيَهُم ثِيابُ سُندُسٍ خُضرٌ**﴾[2].

---

[1] [يس ٨٢]
[2] [الإنسان ٢١]

لقد ورثَ الخَلفُ عن السّلفِ، في جملة ما ورثوه من تراثٍ أثيل، مهمّة المثاغرة، وهي المرابطة على الثغور ضدّ أيّ غزو أجنبيّ. وارتبطَت هذه المهمّة بالولاة المعيّنين من قبَل خليفة المسلمين. لذلك، فإنّ التّاريخ المعروفيّ حَمل عبر العصور أخبارَ المعارك التي خاضها الأجداد في سبيل مِنعة الأمّة، وكذلك، حفاظًا على نوعٍ من الحُكم الذّاتي الّذي تميّز به جبل لبنان حتّى بدايات القرن العشرين. انعكسَ هذا الواقع على شهرة الدّروز في ميادين القتال، وتمتّعهم بصفات الشجاعة والفروسيّة والدّفاع المستميت عن الأرض والعِرض. وقد حرص أمراؤهُم، الّذين حكموا جبل لبنان ما يزيد على ثمانية قرون، على المحافظة على الأهبة العسكريّة للقتال. وكانت تشكيلات جيش الأمراء الوطنيّ من كلّ الطوائف، خصوصًا في عهد الأمير فخر الدّين المعني الثاني. وكان لا بدّ من رايةٍ لكلّ فرقة. ويرجّح أن بعض التّشكيلات اتّخذت لها الراية ذات الألوان الخمس وفقا للتقليد الشّعبي في فهم الهويّة الدينيّة.

لقد خاض بنو معروف، الكثير من معارك الشرف والدّفاع عن الوطن والأمّة، تحت الراية المخمّسة التي سكبوا في ظلّها دماءَهُم لأجل كرامة الأمّة، وصونها من مطامع الأعداء، ودائمًا، تحت شعارات الدّعوة إلى الوحدة والتّضامن ونبذ كلّ تفرقةٍ وشقاق.

مقاربة الشباب اليافع لمسألة وجود الله عزَّ وَجَلّ

مقاربة مسألة وجود الله ومفهوم الدّين بالنسبة إلى الناشئين، يجب أن لا تعتمد على الأمور المباشرة كليًّا، بل بالإيحاء استنادًا إلى الصُّوَر التي يراها الموحِّد من حواليه، والأحاسيس التي يتأثَّر بها، والارتقاء منها الى التجريد العقلي وإدراك المعقول بمقدار ما أَمكَنَتْه استطاعته.

طبعًا هناك المثال الأوّل من صورة الطّبيعة بشكل عام. أمام روعة مشهد الجبال والأشجار والنهر والسّماء والغيوم، ويمكن طرح المسألة بمقاربة لطيفة وذلك عبر ردّ كلّ من المصنوعات الى علَّة وجودها. فالمصنوعات التي أوجدها الإنسان عائدة الى ذوي الاختصاص والإنتاج، ولكن موجودات الطبيعة فإلى مَن يمكن ردّها؟ وبِعبارة أُخرى إنّ كلّ ما نراه من غير الطبيعة هو من صنع الإنسان: بناء البيت، بناء المجمّعات التجاريّة، الحدائق، القصور إلخ... ولكن، مَن الّذي أوجد الشجرة والجبل والبحر والسّماء، وبالإجمال النظام الطبيعي البديع؟ إنّه نظام مخلوق يستبطنُ الكثير من الأسرار، مِمَّا يدلّ على صانعٌ قادرٌ حكِيم هو الله تَعَالَى.

الولد يحبّ أمّه وأباه. إنّه يرى أمَّه، ترعاه وتطعمه وتحضنه وتقبّله... ويرى أباه يدلّله ويشتري له الأغراض، ويسجّله في المدرسة، ويأتي له بالكُتُب، ويأخذ العائلة إلى نزهة جميلة في الطبيعة... الولد يرى كلّ ذلك، ولكن يمكن سؤاله: إنّك ترى كلّ ذلك، ولكن هل ترى الحبّ بعينيك؟ أو هل ترى العطف بعينيك؟ (وكذلك سائر الصفات التي يتأَّثر بها وفق طبعه: الصّدق أو الكرم أو الشجاعة...) فهل ترى الصّدق؟ هل ترى الكرم؟ هذه صفات في النفس لا تُرى بالعين بل بالأفعال. كذلك الله تعالى، لا يُرى بالعين الآن، بل بكلّ ما هو موجود من حولنا. فإذا أردنا أن نراه، علينا أن نسلك درب الفضيلة، ونختار الصدق والخير بحبّ وشغف، ونميّز أعمال الخير عن كل ما عداها.